يسوع المسيح
المعجزة الأخلاقية عبر التاريخ

بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين

مقدمة

أودع عندي أحد الأحباء المهاجرين مكتبته الدينية ، ووسط عشرات الكتب الثمينة عثرت على كتاب " The person of Christ " لمؤلفه فيليب شاف صاحب أكبر موسوعة عرفها العالم عن تاريخ الكنيسة عبر العصور ... ولما قرأت هذا الكتاب أُعجبت جداً بفكرته ، فهو يركز على التحليلات الأخلاقية لكل مواقف المسيح في حياته وآلامه وصلبه كباحث في التاريخ ، مع تقوي أصيلة ... ويثبت من هذا ألوهية المسيح له المجد.

أنني لم أولد في وادي الأردن المقدس ، وطبعاً لستُ من معاصري يسوع ، بل أنني لم أتجول في شوارع المدن التي عاش فيها المسيح ، ولكني بفضل ترجمة هذا الكتاب ، صرت هذا كله. كل كلمة قالها يسوع في ذاك الزمان صارت كأنها خارجة من فمه المبارك إلى أذني ، ويقولها لي أنا شخصياً. وكل معجزة عملها كأنه يجريها الآن أمامي. أما صلبه وقيامته فقد عاشا في قلبي ووجداني كأحداث حية أشاهدها أمام عيني كل حين ...

لقد صدر هذا الكتاب في أنجلترا سنة ١٩١٥م ولكنه يؤثر في الذهن والوجدان بأفكاره النابعة من شركة حية مع المسيح كأعظم شخصية عرفتها الأرض والتي كما قال المؤلف ، تدور حولها كل أحداث التاريخ البشري قاطبة.

أقدم هذا الكتاب لقراء العربية ، سائلاً روح الله القدوس أن يرافق كل قارئ.

مجداً للمسيح ،

وسلاماً وبنياناً لكنيسة الله

الأنبا إيساك

الأثنين ٣ كيهك سنة ١٧٢٢ش.

١٢ديسمبر سنة٢٠٠٥م.

عيد دخول السيدة العذراء إلى الهيكل.

مقدمة المؤلف

١- موضوع هذا الكتاب هو ابراز شخص المسيح له المجد ، كأعظم معجزة أخلاقية شهدها تاريخ البشرية سواءً في الماضي أم الحاضر ، بل لا يتوقع تكرارها في المستقبل. فكل عظماء التاريخ بمن فيهم الرسل والقديسين بل وحتى الملائكة ورؤساء الملائكة شابت سلوكياتهم ضعفات أخلاقية مختلفة ، ولكننا هنا أمام شخص المسيح المبارك ، لا نجد ولا هفوة واحدة منذ الميلاد وحتى قيامته من الأموات ... وهذا هو أقوي برهان على صدق المسيحية.

٢- مجادلات لا نهاية لها ثارت وتثور وستثور حول شخصه المبارك ، وحوارات لاهوتية حامية الوطيس تتردد في كل العصور محاولة الإجابة على تساؤله المبارك :

" ماذا تظنون في المسيح ؟ " [أنه السؤال التاريخي الذي تدور حوله كل أحداث التاريخ كمثل ما يدور الكون حول الشمس] (متى ٢٢: ٤٢).

ولا يمكن أن تكون نتيجة تلك الحوارات المستفيضة والصراعات الفكرية العميقة موضع شك من أحد ... لأنها الحقيقة الساطعة ، [فالمسيح هو مركز كل الكون الأخلاقي].

قد يكابر البعض ضد الحق ، ويستميتون في الدفاع عن الأباطيل ، ولكن الحقيقة هي الكاسبة المنتصرة في النهاية حتى لو سمروها على صليب ودفنوها في قبر ، إلا أن الحق لابد وأن يقوم ممجداً مرة أخري ، مرتفعاً وعالياً ، سابياً سبياً ومغيراً أحيانا ألا الأعداء محولاً اياهم إلى أصدقاء مكرسين كمثل شاول الطرسوسي.

٣- إن أي دارس للتاريخ البشري ، يجد أن الموضوع الرئيسي في تاريخ العالم والجنس البشري هو الصراع بين الإيمان والشك ... كل شيء آخر غير هذا الصراع هو أمر هامشي ثانوي. ومركز تلك الصراعات هي الآراء المتضاربة عن شخص المسيح له المجد وهو ما يُعرف بـ " الكريستولوجي" فقد أُثيرت حوله العديد من المشاكل.

فالسؤال عن المسيح هو في الواقع عن المسيحية. ترى كيف كانت حياة المسيح في هذا العالم؟ إنه أيضاً السؤال عن الكنيسة المؤسسة عليه كصخر لا يتزعزع. إنه سؤال كل إنسان يتوق إلى معرفة الحق ، جاعلاً هدف حياته استلهام أسمي وأنقي وأنبل موضوع ، أي المسيح ... فهو سؤال عن الخلاص الشخصي الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بواسطة ربنا يسوع. كل الكيان المسيحي يقوم أو يسقط بحسب إيماننا في شخص مؤسسة ربنا يسوع المسيح ، الإنسان الإله ، وهذا الكيان المسيحي لم ولن يخبوا أبداً لأن المسيح حي ، وهو هو أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣: ٨).

٤- الأخلاق التي نراها في المسيح التي بلغت حد الكمال بل والاعجاز ، هي برهان على ألوهيته ، وحتى لو قلنا بالتعبير القاصر جداً عن الحقيقة بأن الله كان فيه ، نكون قد وقفنا على صخر راسخ أمام منكرية ومهاجمية ...

شخص المسيح بالنسبة لى أنا شخصياً ، هو أصدق وأقدس حقيقة أعرفها عن سائر الحقائق الأخرى. قد لا أكون متأكداً من وجودى ، ولكنى متأكد من وجوده هو ، نعم وأكثر بما لا يقاس ، لأن المسيح يحيا فىَّ ، وهو أثمن ما فى وجودى. أنا لا شئ بدون مخلصى ، ومعه أنا كل شئ. ولا أرضى عنه بديلاً ولا بالعالم كله. إن التوقف عن الايمان بالمسيح هو توقف عن الايمان بكل البشر أما الايمان به فهو ايمان بالفداء ، ومجد الانسان النهائى. هذا الايمان هو أعظم إلهام لحياة مقدسة ، غزيرة المنافع للجنس البشرى قاطبة ، ولمجد الله .

فيليب شاف

++++++++++

الفصل الأول

مشتهى كل الأمم

أمام عليقة مشتعلة ، أمر الرب موسى أن يخلع حذاء قدميه لأن الأرض التى كان واقفاً عليها أرضاً مقدسة .. فكم بالأكثر ونحن نقترب من الحقيقة الإلهية العظمى ((الله ظهر فى الجسد)) ترى بأى تخشع ووقار نقترب لنرى ذاك الذى لم يكن رآه موسى سوى رمزاً وظلاً له ؟

١- قدس أقداس التاريخ :

يسوع المسيح هو قدس أقداس تاريخ العالم كله ... الأجيال السابقة قبل مجيئه كانت تنتظره بكل شوق ولهفه ، فهو حقاً مشتهى الأمم ... والأجيال اللاحقة بعده ، تعلن مجده ، وتعمل على امتداد سلطانه وملكوته .

لقد مر الآن قرناً من الزمان ، منذ ظهوره على الأرض ، كى يفدى الجنس البشرى من سقطة الخطية والموت .

فضلاء البشر وأنبلهم يُرجعون إليه الفضل .

† فهو الذى نقى حياتهم من الداخل .

† والمسيح هو الذى جعلهم على أعلا مستوى من السمو .

† وهو الذى يتوجهون نحوه بالعبادة والسجود .

† ولقد صار اسم يسوع فوق كل اسم يسمى فى السماء أو على الأرض .

† وهو الوحيد الذى به ينال الخطاة الخلاص .

† يسوع المسيح هو واجد الخليقة الجديدة .

† هو الطريق والحق والحياة .

† هو عمانوئيل الله معنا .

† الكلمة الأبدى الذى صار جسداً .

† إله حقيقى وانسان حقيقى فى واحد بلا انقسام .

† وهو مخلص العالم ...

موضوع ايمان الكنيسة :

شخص المسيح هو موضوع ايمان الكنيسة المسيحية المنتشرة فى أرجاء العالم المتمدين. ومهما اختلفت أسماء الكنائس والطوائف والمذاهب فى المسيحية ، سواءً من جهة الطقوس أم التعاليم ، إلا أن جميعها تتفق على محبتهم ليسوع المسيح وعبادتهم له. جميعهم يعقدون أيديهم فوق صدورهم فى خشوع وهم يقتربون من مذود بيت لحم حيث ولد. وكذلك عند صليب الجلجثة حيث مات عن خطايانا كى نعيش نحن فى السماء إلى الأبد. شخص المسيح هو الترنيمة التى تجمع كل الطوائف البشرية. وكل المعتقدات. إنه جوهر الحياة التى يحيا بها كل المسيحيين الحقيقيين. هو المركز التى تلتقى فيه كل أحاسيسهم وصلواتهم وآمالهم ، بالرغم من عدم تجانس عقولهم .

الفنون المسيحية ، والعلوم الأكليريكية ، والدراسات اللاهوتية كلها تشهد عن التأثير الذى لا يمكن انكاره الذى أثر به المسيح على الكون كله .

كنائس وكاتدرائيات عديدة بلا حصر فى طول الأرض وعرضها كرست له ودشنت عرفاناً يفضله على البشر صلوات وتسابيح ترفع يومياً ، بل وفى كل ساعة لحمد اسمه القدوس ، سواء من أفراد أم من جماعات اجتمعت باسمه المبارك فى كل مكان من المعمورة. نفوذه فى ازدياد مستمر على الأرض ، وملكوته يكبر وينمو على الدوام ، وسيستمر فى الانتشار إلى أن تنحنى كل الممالك أمامه ، مُقبلين صولجان البر والسلام الذى لملكه .

+ طوبى لمن يقدر أن يؤمن من قلبه أن يسوع هو ابن الله ، وهو ينبوع الخلاص لأن الايمان الحقيقى بالمسيح هو من الله (أف٢:٨) حين يستعلن الروح القدس شخصه المبارك للنفس البشرية. كما أعلن هو لنا عن الآب. إن طاقة الايمان بالمسيح الكائنة فى الانسان بكل قوتها الهائلة ، القادرة أن تبرر وتقدس وتخلص ، قد لا تتوقف على علم أو تعليم ، بل إنها قد تتأجج فى قلب طفل صغير ... لأنها هى اشراقة مجد الفادى ، وتأثير ديانته ، أنها سناء التجلى النورانى الذى يتلألأ ببهائه أمام أى انسان بلا تمييز بين جنس أو لون أو سن أو عرق .

إن نعمة المسيح المُخلصة تسرى وتتدفق نحو الكل ومن أجل الكل ، بشرط بسيط هو الايمان.

+ هذه الحقيقة لا تقلل من أهمية العلم والتعليم والفكر والاستنتاج والبرهان ، فإن الاستعلان الإلهى ، بالرغم من كونه فوق الطبيعة وفوق المنطق إلا أنه ليس ضد الطبيعة ولا ضد المنطق ، قال أحدهم : " إن الطبيعى وما هو فوق الطبيعة يحتويان معاً نظام الله الواحد " .
المسيحية تُشبع أعمق ثقافة يبتغيها الانسان كما تشبع أعمق حاجاته كمخلوق على صورة الله من حيث المجد. المسيحية هى استعلان للحق كما أنها استعلان للحياة ، فالمسيح له المجد هو الطريق والحق والحياة (يو١٤:٦) .

٢- معرفة المسيح بالايمان والعلم ... :

" فآمنوا بالأعمال لكى تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فى وأنا فيه " (يو١٠:٣٨) .
من هذه الآية وأمثالها نعرف أن التعاليم عن المسيح ، والايمان بالمسيح ليسا على طرفى نقيض بل قوتان تكملان بعضهما بعضاً. ليسا عدوتان بل أختان تؤأمتان. الايمان يسبق المعرفة ولكنه بالضرورة يؤدى إلى المعرفة ، المعرفة الحقيقية للمسيح دائماً تكون مؤسسة ومتجذرة فى الايمان ، وتميل إلى الاتفاق مع الايمان وتقويته وهذا ما نجده فى اعتراف بطرس الرسول حينما قال باسم الرسل جميعاً " ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح " (يو٦:٦٩) .
إن ارتباط الايمان بالعلم هو من الشدة ، بحيث يصعب على الانسان أن يحدد بأيهما يبدأ ، فالايمان قد يسبق المعرفة ، والمعرفة أيضاً قد تسبق الايمان. لأنه كيف يمكننا أن نؤمن بأى شئ دون الالمام – على الأقل – بمعلومات تاريخية عن وجود هذا الكائن ، وصفاته ؟ الايمان ، حتى فى صورته الأولى ، كتسليم بسلطان الله والارتفاع إلى حقيقة اعلانه ، هو تدريب من عمل الذهن والمنطق ، كما للقلب والارادة. لذلك يعرف الايمان بثلاث محاور : المعرفة – والقبول ثم الثقة والايقان [الذى هو الايمان] (عب١١:١) الابلة والمجنون ، لا يستطيعان أن يؤمنا ...
+ ديننا المسيحى يتطلب ايماناً عبقرياً وذكياً لأنه خاضع للعقل والمنطق ، فهنا يتناسب مع قوته وحرارته ... وهو يهدف باستمرار إلى التعمق فى محتوى عناصره المقدسة ، وموضوعه المقدس .
الايمان الحى بالمسيح هو جوهر كل مسيحية عملية ، وهو نبع كل أعمال الخير والرحمة ، هكذا أيضاً التعليم الصحيح عن المسيح هو جوهر كل اللاهوت المسيحى المنطقى ، حتى أن الرسول يوحنا ، اعتبر أن مجرد انكار تجسد ابن الله هو العلامة التى نعرف بها ضد المسيح. (١يو٤:٣) أما الايمان بهذه العقيدة ، هو جوهر المسيحية الحقيقية. فتجسد الكلمة الأزلى ، والمجد الإلهى المشرق علينا والمتلألئ من خلال الجسد الانسانى للمسيح ، هو الموضوع

الأساسى للانجيل الذى كتبه يوحنا الرسول معبراً عن قلب المسيح ذاته الذى كـان الرسـول قريباً منه (يو١٣:٢٣) .

وايمان الرسل كما نعلم ، ابتدأ من اعتراف القديس بطرس حين قال :

" أنت هو المسيح ابن الله الحى " (متى١٦:١٦) هذا الاعتراف لم يقله أحد من قبل ... فإن كل اللاهوت الذى كافحت من أجله الكنيسة كى يستقر ويترسخ ، كان منذ البدايـة فـى دفاعهـا المجيد عن الألوهية الحقيقية والانسانية الحقيقية التى فى المسيح. لقد وقفت ضـد هرطقـات الأبيونية اليهودية ، التى أنكرت لاهوت [الوهية] المسيح والغنوسية الأممية التى وصـلت إلى جعل المسيح مجرد طيف أثيرى !

إن العقيدة المستقاة من الأسفار المقدسة تحدد بالظبط الكيان العجيب لشخص المسيح المخلص كامل الألوهية وكامل الانسانية فى آن واحد وهذا ما أطلق عليه ((الكريستولوجى)) وايمـان الكنيسة الصحيح فى هذا الأمر هو بالتأكيد سر قيامها. ولقد أصبح معترفا به على نطاق واسع فى كل الكنائس :

١- أن التعليم ينبغى أن ينبع من الأسفار المقدسة لسموها وعلو منزلتها .

٢- التعليم المسيحى يتمحور على التبرير المجانى للانسان بالنعمة التى بالمسيح ، من خلال الايمان .

ثم بعد ذلك يأتى دور الأعمال ، هذه بديهيات راسخة لا جدال فيها. فكلام المسيح هـو أكفـأ مرشد للحق ، وهو النبع الدائم الذى لا ينضب ولا يعتريه نقصان ، كى يستمتع الانسان بدعوة السلام بينه وبين الله .

فالمسيح هو الكل فى الكل. هذه هى أساسيات المسيحية الأصيلة والصحيحة ...

٣- طريقان لتبيان ألوهية المسيح :

لبناء تعليم صحيح عن شخص المسيح ، قد نبدأ مع القديس يوحنا فى مقدمة انجيله من أعلا ، أى من ألوهيته الأزلية ، ثم نتقدم إلى الخلق ، والاعلان التمهيدى للتدبير من العهد القديم حتى نصل إلى التجسد وحياته البشرية الحقيقية لفداء البشر ... أو ، مع الانجلين الآخرين قد نبـدأ من أسفل ، أى من الميلاد من العذراء مريم ونصعد عبر مراحل متعددة متتالية مـن حياتـه الأرضية : أى أقواله ، ومعجزاته ... حتى صعوده إلى المجد الإلهى الذى كان له من قبـل انشاء العالم (يو١٧:٥) .

والنتيجة التى نصل إليها فى كلتا الحالتين واحدة ، وهى إن المسيح وحّدَ فى شخصه كل ملء الألوهية ، وكل ملء البشرية التى بلا خطية .

+ معظم اللاهوتيين برهنوا على ألوهية المخلص مباشرة عن طريق المعجزات التى عملها ، والنبوات والرمز التى تنطبق عليه ، ومن الأسماء الإلهية المذكورة فى الكتب المقدسة التـى

يحملها ، ومن الصفات الإلهية التى لا تكون إلا صفات خاصة بالله وحده والتى وضحت فيه ، ومن الأعمال الإلهية التى أنجزها ، ومن التكريمات الخاصة بالله التى نالها والتى تُجمع عليها الكنيسة وحتى الآن كما أجمع عليها تلاميذه ...

ولكن ألوهية المسيح يمكن البرهنة عليها أيضاً بطريقة أخرى : وهى التأمل فى كماله المطلق فى كل تدابيره البشرية. فنحن نرى كمالاً فريداً بشهادة المسكونة كلها فى كل الأجيال ... بل وحتى غير المؤمنين به يشهدون بكماله الذى يسمو سمواً شاسعاً عن كل عظمة عُرفت بين البشر سواء قبله أم فى جيله أم بعده. فهذا الكمال المُذهل يمكن تفسيره منطقياً على أساس أنه اتحاداً صميمياً مع الالوهية ، كما قال عن نفسه ، وكما قال به رسله الملهمون. ونحن كلما تغلغلنا أكثر فأكثر فى حجاب جسده ، كلما لمسنا وبوضوح ذلك المجد الالهى الكائن فيه ، مجد وحيد الأب " مملوء " نعمة وحقاً " (يو ١:١٤) .

+ عندما هاجم البعض شخص المسيح وشككوا فى قانونية الأناجيل المقدسة ، تطلب الأمر دفاعاً أعنف ، من اللاهوتيين الأمناء على الحق ، وهكذا استقرت على ألوهية المسيح وأنه هو مخلص العالم. ولقد قاد هذا الدفاع بالكنيسة إلى أمجاد وانتصارات جديدة ، حين آمنت بأنها أعضاء جسده على الأرض أما الرأس الذى هو المسيح ففى السماء .

+ إن جيلنا هذا الذى حاول أن يشكل نفسه على القيم الانسانية البحتة ، والمنظومات الأخلاقية المثالية ، وخدمات المحبة ، لم يجد مثله الأعلى إلا فى شخص المسيح ، وبسهولة انتقلت أفكارهم من انسانية المسيح إلى ألوهيته. ونجح هذا الأسلوب فى البرهنة على ألوهية المسيح أكثر من الطريقة القديمة التى تعتمد على نصوص عقائدية تتأرجح بين السلب والايجاب .

كثير من العقول النبيلة ، على طراز توما الرسول يشتاقون أن يضعوا الأصبع فى أثر المسامير واليد فى موضع الحربة ، حتى يسجدوا أمام شخص المسيح المبارك فى عبادة قائلين " ربى وإلهى " فهم ، عندما يبهرون بالأعجوبة الأخلاقية الفائقة التى يتصف بها شخص المسيح ، سوف لا يكون لديهم أى صعوبة بعد هذا البرهان المنطقى الساطع فى الايمان بأعماله المعجزية. فصفات الشجرة تتحدد من صفات الثمرة. فنحن نؤمن بمعجزات المسيح لأننا نؤمن بأنه الله المتجسد ، وهو المعجزة المطلقة فى عالم الأخلاق ...

٤- المسيح الانسان :

بناءً على وجهة النظر هذه ، سنبدأ باستعراض وتحليل صفات المسيح الانسانية كما هى مدونة فى الأناجيل ، وكما دونها تلاميذ أمناء وبسطاء ، مجرد صيادين من بحر الجليل ، بلا سفسطة ، وبلا غرض لأنفسهم ، بل بملء اليقين الذى عاشوا به معه ... سننذهل حين نتأمل فى مراحل حياته المتتابعة سواء على المستوى الفردى ، أم وهو وسط الناس فى المجتمعات المختلفة ... ننذهل لأننا سنجد أنفسنا أمام سمو أخلاقى لا نظير له ، فهو الكامل وحده ...

وبهذا الكمال الأخلاقى الذى عاش به المسيح وسط عالم شرير وخاطئ ، نقتنع بالبرهان الساطع أنه هو الله ...

وللخوض فى هذا الموضوع ، نحتاج أن نفحص حياة المسيح سواءً العامة أمام الناس أم الخاصة وهو وحده. نمعن النظر فى كل دقائق حياته كمعلم وكمُصلح ، وكصانع للمعجزات ، وكمؤسس لمملكة روحية ممتدة إلى الأبد. فعن طريق كل جانب من هذه الجوانب المختلفة ، سنجد أنفسنا بسهولة أمام نفس النتيجة ، أى أنه هو الله. سنركز الآن على صفاته الشخصية ، وهذا وحده على ما أظن فيه الكفاية لنصل إلى نفس النتيجة ، أى الايمان بألوهية المسيح ...

نحن نعلم أن المقاومين للمسيحية نادراً ما يغيرون آراءهم عن المسيح عن طريق البراهين المقنعة ... لأن الايمان أو عدمه ينبع من القلب والإرادة وليس العقل والفكر ، ولكن المفكرين الأمناء محبى الحق ، الذين هم على شاكلة نثنائيل ، وتوما الرسول ، سوف لا يرفضون قبول الحق المبرهن عليه بالصدق والاخلاص .

طوبى للباحثين عن الحق ، لأنهم سيجدونه .

++++++++++

الفصل الثانى

طفولة يسوع وصباه

مر يسوع بكل مراحل الحياة البشرية من المهد إلى الرجولة. فكان مثالياً فى جميع المراحل ، فلقد كان هو الطفل النموذجى ، والصبى النموذجى ، والفتى النموذجى ، والشاب النموذجى ، والرجل النموذجى .

وهذه المثالية فى كل مراحل العمر ، لكى يقدس كل مراحل عمر الانسان ، إذ هو فادى الجميع ، أيضاً لكى يقتدى به الجميع ، فهو النموذج الحى إلى الأبد ...

أما مرحلة الشيخوخة بكل وهنها وضعفها ، فلم يمر بها المسيح ، إذ قد مات وقام وهو فى عنفوان الرجولة ، لأن تلك المرحلة لا تتماشى مع رسالته كمجدد للبشرية ، لذلك اختار أن ينهى حياته على الأرض وهو فى عنفوان الرجولة ، كى يبقى فى قلوب شعبه فى حيوية لا تذبل ، وسناءً لا يخبو إلى الأبد .

٥- المهد والطفولة :

فلنبدأ بلمحة عن طفولة يسوع ...

إن تاريخ الجنس البشرى بدأ بشاب جميل اسمه آدم ، شاب برئ رائع فى جنة الله عدن ، " عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله بالفرح " ولم يكن هذا الترنم وذاك

الهتاف إلا عندما أدركوا أن آدم وحواء مخلوقان على صورة جابلهما ، ومكللان بالمجد والكرامة اللذين لكل أعمال الله العجيبة .

هكذا أيضاً آدم الثانى يسوع المسيح ، فادى البشرية التى سقطت ، والذى أتى ليعيد للانسان كرامته وكماله ، عندما أتى إلى الأرض أمامنا بصورة طفل ... مولوداً ليس فى جنة الفردوس ولكن وسط خرائب ونفايات الخطيئة والموت ، مولوداً من عذراء متواضعة فى مزود حقير – ولد طفلاً نقياً وبريئاً ... تهللت الملائكة ، وسجد له أتقياء البشر ... العذراء عروس النجار المتواضع تحولت إلى نبية وشاعرة لمجرد سماعها البشارة بمولده .

ميلاد المسيح أعاد الشباب لزكريا الكاهن وأليصابات والدى يوحنا المعمدان ، ورغم تقدمهما فى الأيام استطاعا بتأثير الرجاء فى خلاص قريب أن يُنجبا يوحنا السابق ، وكان الجنين يركض بابتهاج فى بطن أمه أليصابات ، فهو الذى سيهيئ الطريق لمجئ المسيح .

ترنيمات أليصابات ومريم العذراء ، وزكريا ، ترنيمات خالدة تُعبر عن الابتهاج العفوى العميق ، وهى تجمع بين روعة الشعر ، والتعبير عن الحقيقة ، فكانت أروع تمهيد لظهور الطفل يسوع ... فذروة الانفعال بانجيل الخلاص والبشائر الالهية المفرحة يلهم بأصدق شعر ، والشعر عندما يعبر عن الحقيقة هو أسمى شعر ، أنه الشعر المثالى ...

على هذا النحو ولد الطفل الإلهى ... السماء والأرض تهللتا. رعاة بيت لحم [وهم يمثلون نسل ابراهيم المشتاق للخلاص] والمجوس من المشرق [وهم يمثلون الأمم الأخرى] أتوا وسجدوا فى عبادة خاشعة للطفل ، الملك والمخلص ...

نقابل هنا فى بداية تاريخ المسيح على الأرض ، ذلك التلاقى العجيب بين الاتضاع والمجد ، البساطة والسمو ، الانسان والاله ، تلك السمات التى تميز بها على طول الخط ، والتى تميزه عن كل تاريخ آخر .

بداية ظهوره للعالم ، كان طفلاً فقيراً ، فى مدينة صغيرة لا يعتد بها هى بيت لحم. وفى أحقر حى من تلك المدينة ، فى مزود [أى زريبة]. ولد يسوع طفلاً لا حول له ولا قوة ، طريداً من وجه غضب طاغية قاسى يريد قتله. وهو هيرودس .

هذا لأول وهلة قد يضع عثرة أمام ايماننا ، ولكن من جهة أخرى ، ظهور ملائكة تسبح بفرح ، والترنيمات التى ترنم بها زكريا ، والقديسة مريم ، والتعظيم المبارك الذى شدا به لسان أليصابات ، وحنة النبية ، وسمعان الممتلئ بالروح القدس ، بما حوت تلك الترنيمات من نبوات تحققت. وأيضاً الاستنارة التى أفهمت الكتبة عن موضع ميلاد المسيح من الأسفار الالهية المقدسة تلك التى أخبروا بها هيرودس مما جعله يصاب بالتشكك الحالك والاضطراب. أيضاً نجم بيت لحم كشعاع هدى المجوس فى رحلتهم وهم آتون من بعيد ، أيضاً مغزى الأحلام التى رآها يوسف النجار ... كل هذه تكون منظومة مجد وتبين عناية الله المسيطرة

على الأحداث ، وتبرهن على الأصل الإلهى للطفل يسوع. السماء والأرض تحركتا حول من هو مركز الكون كله ... يا للمفارقة ! طفل فى مذود متواضع ، إلا أنه يحمل خلاص العالم. طفل يكرهه ويخافه رؤساء هذه الأرض ، إلا أنه مشتهى كل الأمم وآسر قلوب الجميع ! طفل محتقر وفقير ، إلا أنه مكرم وتوجه له العبادة ! طفل محاط بالمخاطر ، إلا أنه محفوظ بصورة معجزية !

أنه الطفل المتحكم فى نجوم السماء ، ومدينة أورشليم ، وملائكة السماء ، ورعاة اليهودية ، وحكماء المشرق ، وجعلهم فى حركة نحوه ، جاذباً أفضل العناصر من العالم إليه ، وطارداً لكل الأشرار ومن أحبوا المكوث فى الظلمة .

هذه المفارقات العميقة جداً ، والسامية جداً ، مشحونة بالمعانى ذات المغزى ، ولا يستطيع صيادون غير مثقفين ، الذين أوحى إليهم بكتابة الأناجيل ، أن يخترعوها البشيران متى ولوقا لم يذكرا ليسوع الطفل أى معجزات بالرغم من علامات الألوهية البادية عليه ، فهم لا يستبقون الأحداث ، بل يصورانه كطفل بشرى حقيقى مقطماً مضطجعاً فى المزود ، مبتسماً على صدر أمه العذراء فى هدوء ... ثم نامياً ومتقوياً فى الروح مستسلماً لقانون النشؤ العادى ، رغم اختلافه عن كل الأطفال الآخرين بطبيعته الأسمى فى الادراك ، وتحرره من الخطية الأصلية وكل ذنب ، مما جعل وجهة ذا مسحة سماوية فى براءة لا يشوبها أى تلوث. لقد كان زهرة حقيقية من الفردوس ... فهو " القدوس " بحسب ما أعلن الملاك غبريال. كان موضع حب واعجاب كل من اقترب منه بروح طفولية ، ولكنه أيضاً يثير الشكوك السوداء عند من لهم روح الملك الطاغية المضطهد ، والذى يمثل أعداء المسيحية فى المستقبل. من يستطيع أن يستوعب مدى التأثير الحيوى والنقى والنبيل النابع من التأمل فى طفولة يسوع. فكلما جاءت مناسبة (الكريسماس) أى عيد الميلاد تتهلل قلوب الصغار والكبار فى كل أنحاء العالم ... فهذا العيد يعيد إلى وجداننا لمحة عن الفردوس المفقود ومجدنا الذى أضعناه ، حين نرى فى وجه الطفل يسوع تلك البراءة التى لا تخفت .

٦- مرحلة الصبوة :

ليس لدينا سوى واقعة واحدة عن الصبى يسوع كتبها القديس لوقا. لقد حفظها ورواها بكل تفاصيلها وبكل اعجاب ... فهى تلقى ضوءاً على مجد حياته الجهارية ، والشعار الذى عاش به طوال حياته على الأرض كخدمة متواصلة لأبيه السماوى : يذكر القديس لوقا أن يسوع عندما كان فى الثانية عشر من عمره ، ذهب إلى الهيكل فى أورشليم ، وسط المعلمين اليهود الجهابذة ، ليس بصورة معلم فى عدم اتضاع أو استباق لسلطانه فى التعليم ولكن " ليسمع منهم ويسألهم " مثله كمثل من هم فى مثل سنه ... ولكن رغم هذا دهش المعلمون اليهود من فهمه وأجوبته. لا يوجد هنا اقتحام لبلوغ قبل الآوان ، والظهور قبل الوقت ، وبالرغم من هذا

، كان على درجة عالية من الحكمة والتركيز والتعمق فى الدين أكثر بما لا يقاس عن أى صبى بشرى. ثم نقرأ أنه كان ينمو فى الحكمة والنعمة والقامة عند الله والناس .
ثم كان خاضعاً لوالديه ممارساً كل فضائل الابن المطيع ، أما تأثيره هو عليهما ، فكان الهيبة والخشوع المقدس وهما يريانه ممتصاً بكلياته فيما لأبيه السماوى. لقد سمعاه يردد كلمات لم يستطيعا فهمها فى ذلك الوقت ، ولكن القديسة مريم حفظتها فى قلبها كسر مقدس ، مقتنعة أن هناك ما هو أعمق فى هذا الصبى ، يفسر سر طبيعته الفائقة فى حمله وولادته .
مثل هذه الطفولة السمائية التي لا يشوبها أي شائبة ، والصبوة ذات الحكمة المذهلة المتنامية تقابلنا كحقيقة حية في بداية سيرته المؤثرة كما هي مدونة في البشائر. تلك التي لا يمكن أن تكون نتاج خيال ، ألف عليه بشر قصصاً ، على العكس كما لاحظ أحدهم ، فالذين يكتبون عن عظماء التاريخ يصفون كيف تهذب هذا العظيم ، كيف تخلفت منه الكثير من الرذائل والحماقات بعمليات التربية والتهذيب والتعفف ، ثم كيف تمرن على قيم وأخلاق معينة ، من خلال محكات عملية ، وسيطرة على شهوات غير منضبطة باستخدام المطنق والتسامي وكيف يحافظ على اللطف والوداعة عملياً ، وعادة ما يُقلع عن بعض الأهواء الضارة لإظهار التقدم نحو الرجولة وترك مرحلة الصبي ... وعلى المدي تضمحل الشهوات السيئة بالتدريب إلى فضيلة الحكمة والبر والبطولة التي يعجب بها كثيرون ...
وأما بالنسبة للمسيح فنحن نبهر لأننا نواجه بهذا المستوي العالي جداً في الأخلاق والقيم الدينية الذي لا يقل قيد أنملة عن الكمال المطلق ، لأن الكمال الإلهي كائن ومحتوي فيه من البطن .
لو حاول أحدهم أن يؤرخ مرحلة الطفولة لأحد العظماء ، مدوناً عنه خوارق وتصرفات إعجازية في هذه المرحلة المبكرة فإننا سريعاً نشك في صدقه ونتهمه بالمبالغة والتزييف ، كمثل الأساطير حول هيرقليدس الذي قيل أنه كان يسحق التنانيين الضخمة بيديه الرقيقتين وهو لم يزل رضيعاً !
لقد أبقي كُتاب الأناجيل عمل المعجزات التي أجراها المسيح إلى سن النضوج وأثناء الخدمة الجهارية العامة ، وراعوا صمتاً ذات مغزي بخصوص أبوي يسوع .
هناك بعض كتب الأبوكريفا الزائفة سردت روايات سخيفة عن طفولة يسوع ، وسنوات المخلص الأولى وأمه ، مليئة بأغرب الأعاجيب ، جاعلة توسط مريم أمراً حيوياً ، وبحسب مقولاتهم نجد أن الأوثان الحجرية ، والوحوش غير العاقلة ، والأشجار الثابتة ، تنحني ساجدة أمام الطفل يسوع في رحلته إلى مصر ! وبعد عودته إلى الناصرة كان يصنع من كرات الطين طيراً أمام الرفاق لمجرد أن يمتعهم ويبهر من حوله ويخيفهم ، أيضاً قيل أنه جفف ينبوع ماء بكلمة ، وحول بعضاً من رفقائه إلى جداء !!

ثم مقيماً للموتي ومجرياً كل أنواع معجزات الشفاء بتأثير سحري لمياه كان قد اغتسل فيها ، أو من فوطة كان يستعملها ، أو الفراش الذي ينام عليه ... هنا نجد التزييف وسخافات الروايات غير الطبيعية. في حين أن الأناجيل تصور لنا الحقيقة والجمال لما هو فوق طبيعي في سرد تاريخي سلس وحقيقي يزداد تلألؤا حين نقارنه بالظلال الأسطورية.

++++++++++++

الفصل الثالث

النشأة

عاش يسوع وسط من قال عنهم الكتاب المقدس " المزدري وغير الموجود " في ولاية مهزومة تحت الاحتلال الروماني ، وفي أكثر أقاليم فلسطين اظلاماً في الناصرة ، وهي بلدة لا يعتد بها ... أمضي يسوع فترة شبابه في فقر وكان يعمل بيديه في ورشة نجارة صغيرة ، لا نعرف عنها شيئاً.

كان بعيداً تماماً عن الجامعات والأكاديميات والمكتبات ، والمجتمعات الأدبية اللامعة. لم يكن يتمتع بأي فرص للتثقيف ما خلا العناية الوالدية وجمال الطبيعة المحيطة به ، وأسفار العهد القديم والخدمة الدينية في المجمع كل يوم سبت والعيد السنوي في أورشليم. وأكثر من كل هذا ، الاتصال السري بينه وبين الله الذي أشبع عقله وقبله. كانت الطبيعة بعجائبها هي الكتاب المفتوح أمامه دائماً ، وكتابات الوحي المليئة بالدروس الغنية والهامة ، والأعظم من كل الدراسات البشرية والفنون والآداب ... وكانت متاحة أيضاً لكل شاب معاصر ليسوع في بلدته المتواضعة " الناصرة " من ثم أتي سؤال نثنائيل لأخيه أندراوس : " أمن الناصرة يمكن أن يخرج شيء صالح " ؟

ولأجل هذا دهش اليهود الذين كانوا يعرفون كل شيء عن ظروف نشأته طبيعياً وقالوا مستغربين : " كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ؟ "

وفي موقف آخر عندما كان يُعلم في المجمع قالوا : " من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟ أليس هذا ابن النجار ، أليست أمه تدعي مريم وأخوته يعقوب ويوسي ويهوذا ، أو ليست أخواته جميعهن عندنا ، فمن أين لهذا هذه كلها ؟ " ... مثل هذه الأسئلة لا يمكن تجنبها ، وكذلك لا يمكن الإجابة عليها ! هذا طبعاً لو اعتبر أن المسيح هو مجرد إنسان عادي ، لأن كل تأثير لابد وأن يسبقه سبب مؤثر ...

٧- سلطان يسوع الذاتي :

لا يمكننا اعتبار المسيح بين من تأثروا بتربية وتعليم في مدارس ، ولا يمكن اعتباره من العصاميين في المعرفة أي أن يكون قد علم نفسه بنفسه من كثير ما قرأ في الكتب

والمخطوطات ، أو من الذين تردد عليهم معلمون ليشرحوا له صنوف المعرف البشرية من مراجعها المتعددة ، ولم يتاح له أي وسيلة من وسائل التثقيف لانماء المهارات الفكرية للوصول إلى العبقرية والغني الثقافي كمثل العقاد وشكسبير وبنامين فرانكلين ....

+ لقد حاول البعض أن يستنتجوا من سنوات الصمت في شباب المسيح أنه جاء إلى مصر وتعلم جوهر حكمة الفراعنة ، أو سافر إلى الهند وتعلم من الحضارة الهندية القديمة ، أو أي مصادر أخرى للدراسة ... ولكن هذه الاستنتاجات هي غير مقنعة ولا مثبتة بالبراهين ولو بمقدار ذرة ... وبعد كل شيء هذه الاستنتاجات لا تشرح أي شيء. فالمسيح لم يقتبس أي اقتباس إلا من الأسفار المقدسة التي للعهد القديم. لم يشر أي تاريخ مدني أو شعر أو نثر أو رياضة أو فلك أو لغات أجنبية أو علوم طبيعية ، أو اكتشافات أو اختراعات أو أي من تلك الفروع الأخرى للمعرفة التي يتكون منها تراث الدراسات الإنسانية والأدبية.

لقد ركز المسيح على الدين والعلاقة مع الله وفقط ... ولكنه من هذا الموقع يشع بنوره على العالم كله ، عالم الإنسان ، وعالم الطبيعة ، وسلك بالالهام الإلهي وهكذا أفاد العالم كله باسمي وأنقي فكر !

كان مجدداً ومأصلا في آن واحد ، بعكس عظماء الرجال الآخرين بما فيهم الأنبياء والرسل. لقد علم العالم دون أن يتعلم من العالم أي شيء كان حراً ومتحرراً من ضرورات العالم ، فهو يتكلم من الغني الإلهي ، ليس فقط كواحد يعرف الحق ، بل أنه هو الحق .

كان يتكلم بسلطان ، ولم يأمر اتباعه بالتسليم الكلي ، كذلك لم يحثهم على الثورة والتمرد ، ولكنه من النوع الذي لا يمكن أن يمر دون أن يوقف الفكر للتأمل فيه. وبعد أن يفكر إنسان في المسيح لا يمكن أن يبقي الأمر سيان ...

قال جون ينح في كتابه تاريخ المسيح : " إن حياة المسيح وصفاته نابعة ومصبوغة بقوة إلهية معجزية ، فبالرغم من كل المقاومات ، لم تستطع قوة على الأرض أن تطمسها ".

من هنا ، من السهل أن نقبل بألوهية المسيح ونري أنه بهذا التنازل أراد أن يعلو بذوي الأصول المتواضعة ، الفقراء والكادحين ، والطبقات الأدني في المجتمع ويرفعهم إلى مكانة وتقديس لم يعرفوه من قبل .

لقد أرسي يسوع القواعد التي على أساسها يكون الحكم على الناس ، فليس المظهر الخارجي هو المقياس ، بل الجوهر .

++++++++++

الفصل الرابع

الحياة العامة

نحن الآن نقترب من حياة يسوع العامة ، فعندما بلغ عامه الثلاثين ، ظهر يوحنا المعمدان كسابق له ، مبشراً بالذي سيأتي بعده ، بعد أن شهد بانفتاح السماء للمسيا الآتي ، وسماع صوت الله المباشر قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت ، ثم مجئ روح الله القدوس عليه أثناء المعمودية ، وكتمهيد لازم للخدمة ذهب إلى برية التجربة وانتصر ، عكس آدم الأول في الفردوس ...

وهكذا دخل عمله العظيم.

٨- تعاليم حيوية وأصيلة :

استمرت حياة الخدمة ليسوع المسيح ثلاث سنوات فقط ، ثم صلب ومات وهو في ملء جمال ووهج الرجولة المبكرة. لم تداهمه الشيخوخة بوهنها ، ولكنه بقي في عنفوان الشبوبية دون أن يصير كهلاً على الإطلاق .

كل كلمة قالها ، وكل عمل فعله كان له طابع حيوية الشباب ووهجه وحماسته ، وبقي هكذا حتى النهاية على الأرض. كل الأشياء الأخرى ذبلت وكل كتاب ألفه البشر ، فقد الاهتمام بعد قراءته مرة أو مرات ، أما انجيل يسوع ، لا يفقد بريقه الفكري بل تزداد اللهفة أكثر على قراءته كلما قرئ ، ويغدو أكثر عمقاً مع كل محاولة لسبر أعماقه .

قال نابليون وهو يتحدث من منفاه في جزيرة سانت هيلانه مشيراً إلى نسخه من العهد الجديد على مكتبه : " أنني لا أمل من القراءة فيه ، وأنني أقرأ فيه يومياً بنفس الشغف. أن الانجيل ليس مجرد كتاب بل هو قوة حياة تكتسح كل القوي المضادة، والنفس التي سبيت بجمال الانجيل لا تعود تنتسب إلى ذاتها بعد ، ولا إلى هذا العالم ، بل إلى الله " .

ويا له من برهان ناصع ، أعني ذلك التأثير الذي يدل على ألوهية المسيح .

كذلك المستشرق العظيم " هنري أيوالد ، قال لصديق له وهو يمسك كتاب العهد الجديد بيده : " هذا الكتاب الصغير يحتوي على كل حكمة العالم " .

٩- حكمته واعتداله :

رغم قصر المدة التي قضاها في خدمة الجماهير ، وعلى خلاف كل من هم في مثل سنه من الرجال ، جمع المسيح في ذاته بين حيوية الشباب ، والحكمة والاعتدال والخبرة التي تكون في السنوات المتقدمة من العمر .

أنهم ثلاث سنوات فقط قضاها مع الجموع ولكنها حوت من التأثير – وهذا من الزاوية التاريخية البحتة – مالم يحدثه عظماء كثيرون طالت أعمارهم جداً. كانت سنوات ثلاث ، ولكنها حبالي بأعمق المعاني عن أوضاع الإنسان على الأرض ، والاستعلانات الإلهية ...

إنها أنضج ثمرة رأتها البشرية عبر كل عصورها ، حققت كل الآمال والأشواق التي كانت تتوق إليها كلا الأمم واليهود. وفيه أيضاً البذرة الصالحة المثمرة لكل الأجيال اللاحقة. حياة يسوع تُلهم البشر بأنقي وأنبل الأعمال وحتى نهاية الأزمنة ... إنها نهاية ماض بلا حدود ، ومركز حاضر بلا حدود ، وبداية مستقبل بلا حدود .

كم كان المسيح متميزاً وعجيباً ! هذا رغم قصر المدة ، ولقد كانت رسالته التي قام بها من أجل خلاص العالم ذات مغزي وانتشار بلا حدود .

آخرون قد يحتاجون إلى سنوات طويلة كي ينضجوا ذهنياً وسلوكياً ، وبهذا يُحدثون انطباعاً باقياً في العالم ... وقد يخرج علينا التاريخ بفلتات استثنائية كمثل الإسكندر الأكبر الذي هو أذكي وآخر أباطرة اليونان القديم ، حيث أنه مات في سن الثلاثة والثلاثين ، بعدما كان قد هزم ممالك الشرق وبلغ حدود الهند ...

ولكن من يجرؤ أن يقارن محارب طموح ، هُزم في النهاية مغلوباً من شهوته ، ويموت ضحية نزواته ، مع يسوع الطاهر النقي الذي لم يشهر سيفاً في وجه أحد ؟ كيف نقارن بعض الانتصارات المدوية القليلة ، مع انتصارات السلام التي أحرزها المسيح ، فهو الذي خرج غالباً ولكي يغلب ؟ وكيف نقارن امبراطورية عسكرية تأسست بالقوة والعنف ، ثم ما فتئت أن تحطمت أشلاءً بمجرد قيامها ، مع مملكة المسيح الروحانية المؤسسة على الحق والحب وهي باقية إلى الآن وستدوم إلى الأبد ؟ ويجب أن لا ننسي هنا مقاصد الإرادة الإلهية التي كانت وراء فتوحات الإسكندر الأكبر ، فلم تكن تلك الفتوحات وليدة طموح جارف عند الإسكندر وإرادة فولاذية ولاتتوقف عند أي أفق ... بل كان قصد المشيئة الإلهية أن تنتقل اللغة والحضارة اليونانية إلى آسيا ، وتتلاحم أوروبا مع الشرق كتمهيد وإعداد لمجد المسيا ثم انتشار المسيحية بسهولة في كل الأصقاع ، فمن الواضح أن الديانة المسيحية تحتل الوضع المركزي في التاريخ البشري – كل الأجيال السابقة للمسيحية كانت تتطلع إليها كتحقيق لكل آمالهم وإلهامهم. وكل الأجيال اللاحقة تبدأ بالمسيحية لتنفذ خطة مجيئه الثاني .

في حوار نابليون مع برتراند في جزيرة سانت هيلانه قال ملحوظة عجيبة وهي : قد يُبهر العالم بفتوحات الإسكندر ، ولكن المسيح المنتصر هو الذي يجتذب إلى نفسه ، ليس أمة واحدة بل كل الجنس البشري ، ويجعلهم واحداً معه على المستوي الروحي ... يا للاعجوبة ! النفس البشرية بكل ملكاتها تصبح ملحقاً لوجود المسيح !

١٠- تواضع ، واحتمال هادئ :

هنا تمايز شديد جداً في الصفات العامة بين المسيح وأبطال التاريخ ينبغي أن نلاحظها ... فمن الطبيعي أن نفترض أن مثل هذه الشخصية الفذة صانعة المعجزات ، تحاط بهالة من التبجيلات ، ويفترض أن من يعمل مثل هذه الأعمال المبهرة التي عملها المسيح ، سيحاط

فاعلوها بكرامة فائقة من الزهو ، وتعلو به حتى يبلغ تكريماً عالياً جداً من الجماهير التي حوله ، والمتحمسة له من حيث أن يرفعهم من البؤس إلى الشعور بآدميتهم. قد نتوقع ملامح معينة في نظراته كأن تكون نظراته نارية ثاقبة ، كذلك ملابسه من المتوقع أن تكون ملوكية أو كهنوتية فاخرة غير عادية ، أيضاً من المتوقع أن تكون سلوكياته وطريقة كلامه متعالية ومصطنعة ، ومظهر حياته الخارجية مبهراً كذلك نوعية مريديه واتباعه الذين يسمح لهم بلقائه لابد وأن تكون صفوة مميزة .

ولكن واقع الحال هو العكس تماماً ، عظمة المسيح كانت في عدم الزهو والخيلاء ، وتواضع وهدوء لا يدانيه فيه إنسان آخر ! وبدلاً من إزاحة ناظريه عنه نراه يجذبهم إليه ويدعوهم لاقتراب ودي أكثر. حياته العامة لم تتحرك في مجالات الاستعراضات والخطب الرنانة كما نري من قادة العالم العلمانيين ، بل من داخل دائرة حياته اليومية ، والعلاقات البسيطة كابن وأخ ومواطن ومعلم وصديق .

ليس لدينا وصفاً دقيقاً تصف ملامح وجهه الإنساني الإلهي ، ولكن لابد وأنه كان مملوء مجداً " مجد وحيد لأبيه مملوء نعمة وحقاً ". كل هذا كان واضحاً من خلال ستار جسده الذي كان بلا خطيئة ... هذا لا يُدرك إلا من خلال التغلغل في أعماق شخصه الإلهي. لم يكن في ملابسه شئ متميز كى تعطيه هيبة مظهرية ، هذا إن كان حكمنا مبنى على غياب أى اشارة عن الموضوع فى الأناجيل .

لم يكن عنده جيش يأمره ، ولا مملكة ليحكمها ، ولا مركزاً مرموقاً ليشغله ، ولا أى امتيازات دينونية أو هبات وعطايا يمنحها لمريديه. كان شخصاً متواضعاً بلا أنصار ، ولا معضدين له ، لا فى مجمع السندريم ولا فى بلاط هيرودس. لم تكن له علاقات حميمة ودية مع قادة دينيين ، أو من المجمع اليهودى من بين الذين بهرهم وهو فى سن الثانية عشر بأسئلته وفهمه.

اختار تلاميذه من صيادى الجليل الأميين ، ولم يعدهم بأى امتياز أو مكافأة فى هذه الحياة بل مشاركة فى كأس آلامه المرة. لقد اختلط مع عشارين وخطاة ، واندمج مع البشر العاديين بغض النظر عن سلوكياتهم وعاداتهم الوضعية. كان فقيراً إلى الدرجة التى لم يكن له مكان ليسند رأسه. كان يعتمد على العطاء والاحسان الاختيارى لقليل من النسوة النقيات لسداد احتياجاته المتواضعة ، وكان الصندوق فى يد سارق وخائن .

لم يكن مستعيناً بأى ثقافة أو فصاحة أو أى من فنون الدنيا ، ولم يكن لديه أى نوع آخر من القوة التى يعتمد عليها عظماء الأرض كى يلفتوا انتباه الناس ويضمنوا بها نوال اعجاب العالم

فلاسفة روما واليونان لم يشعروا بوجوده ، وحتى بعد مرور سنوات عديدة من صعوده ... ولكن بعدما نما تأثير رسالته بواسطة تلاميذه البسطاء ، أجبر هؤلاء الفلاسفة على التوقف للتأمل ، فبعضهم انجذب وآمن وآخرون تنافروا وقاوموا .

١١- نجاح منقطع النظير :

ورغم هذا كله ، فإن يسوع الناصرى ، بلا مال ولا أذرع بشرية ، غلب البلايين أكثر من الاسكندر وقيصر ونابليون. وأيضاً بلا علوم ولا تعليم ، ألقى الضوء الحقيقى على أهم ما يخص البشرية والألوهية أكثر بما لا يقاس من كل فلاسفة الأرض وأصحاب المدارس مجتمعين. ورغم أنه لم يتعلم الفصاحة إلا أنه تكلم بكلام الحياة التى لم يتحدث بها أحد من قبل ولا من بعد ، وأحدث فى العالم تأثيرات أكثر من كل شعر الأرض ونثره ومقالاته ، دون أن يكتب هو سطراً واحداً ، فلقد حرك أقلاماً عديدة للكتابة عنه ، وكان هو موضوع عظات لا تُحصى ، وخطب ومناقشات وكتب وموسوعات ودوائر معارف ، وأعمال فنية ، وتسابيح وترانيم أكثر بكثير من ألوف عظماء الماضى والحاضر والمستقبل .

+ ولد فى مذود ، وصلب كمذنب ، ولكنه الآن يتحكم فى مصائر العالم المتحضر ، ويحكم امبراطورية روحية ، ما يعادل نصف المسكونة. لم تشهد الأرض حياة بلا مظهرية ، ومتواضعة وغير معتد بها فى منظرها ، وأحوالها الخارجية كمثل حياته ، ومع هذا يكون لها هذه التأثيرات المذهلة فى كل العالم ، وعبر كل الأجيال. لقد بلغ تأثيره إلى كل الأمم ، وكل طبقات الناس على اختلافها ، فكل المدونات التاريخية لا تعطى أى نماذج أخرى تماثل نجاح المسيح المذهل ، بالرغم من غياب كل المقومات المادية والاجتماعية والأدبية والفنية ، والقوى التى لا غنى عنها كى يحقق أى انسان نجاحاً ولو ضئيلاً. هنا يقف المسيح بلا نظير من كل من سجلوا بطولات تاريخية وهذا يأتى بنا إلى لغز محير ، ما لم نقر أن المسيح أكثر من مجرد انسان ، إذ هو ابن الله الأبدى. سنحاول الآن أن نتأمل فى صفاته الشخصية والأخلاقية والدينية كما تظهر فى سجل حياته العامة ، ثم نتفحص شهادته هو عن نفسه وهذا سيمدنا بالتأكيد بما يقنعنا لحل هذا اللغز المحير فسنجد أن الحل المنطقى الوحيد هو أن يكون المسيح كائناً إلهياً .

++++++++++

الفصل الخامس

انتصار على كل التجارب

أول انطباع نتلقاه من حياة يسوع هو البرارة الكاملة (البر الكامل الذي ليسوع) ، وعدم الخطية ، فى وسط عالم خاطئ. إنه هو وحده وليس أحد غيره ، احتفظ بنقاء طفولته بلا تلوث

ولا تلطخ عبر مراحل صبوته وشبابه ورجولته ، لذلك أضحى الحمل والحمامة ، هما الرمزان اللذان يمثلانه تماماً .

١٢- معرض للتجربة :

جرب المسيح بالفعل كما نحن ، ولكنه أبداً لم يستسلم للتجربة " مجرب فى كل شئ مثلنا بلا خطية " خلو يسوع من الخطية كان فى البداية كمثل آدم قبل السقوط ، حيث يستوجب ضرورة الاختبار والتجربة ، مع احتمال الخطأ وعدم العصمة. فلو كان يسوع من البداية مزوداً بالعصمة المطلقة ، أو استحالة السقوط فى الخطية ، لا يمكن أن يكون انساناً حقيقياً ، ولا يكون هو المثال الذى نتبع خطواته. قداسته تكون استحقاقاً وراثياً ، وليس خياراً اختاره بذاته ، وستكون مجرد منحة خارجية عارضة. وستكون تجاربه مسرحية غير حقيقية. ولكن المسيح كانسان حقيقى ، ينبغى أن يكون حراً ومسئولاً أخلاقياً. والحرية تحتم أن يكون الانسان حراً فى الاختيار بين الخير والشر والسير فى طريق الطاعة لناموس الله أو السير فى طريق العصيان .

١٣- انتصار مطلق على التجارب :

هنا يكمن الاختلاف الأساسى بين آدم الأول وآدم الثانى. فلقد فقد آدم الأول براءته باساءته إستخدام حريته ، وسقط بفعل عصيانه الخاص به أمام الاغراء المرعب لأن يخطئ ، بينما آدم الثانى كان باراً وسط خطاة ، وكان باراً براً مطلقاً ضد كل تجربة تعرض لها. عصمة المسيح عن الخطية التى كانت نسبية أصبحت مطلقة بفعل مستواه الأخلاقى الخاص به ، واستخدامه الصحيح لحريته إذ جعلها فى طاعة الله ، ايجابياً بفعل الخير ، وسلبياً بالحيود عن الشر .

فقبل التجارب كان احتمال عدم سقوط المسيح فى خطيئة ، كائناً مع الاحتمال العكسى ، أى امكانية السقوط فى الخطية ، ولكن بعد الانتصار فى التجارب أُستبعد تماماً احتمال السقوط فى الخطية ، وبات من المستحيل السقوط فيها ، ففهمنا لعدم قدرة المسيح على السقوط فى الخطية هو أنه بمحض حرية إرادته لا يريد. هذه هى أعلا مستويات الحرية حيث يكون هناك قرار ذاتى مطلق نحو الخير والقداسة لا يتغير كضرورة أخلاقية. هذه هى حرية الله ، وأيضاً حرية القديسين فى السماء ، مع اختلاف هو أن القديسين يحصلون على هذه الحالة بواسطة الخلاص والنجاة من الخطية والموت ، بينما حصل عليها المسيح لاستحقاقه الشخصى .

١٤- سجل حياة بلا خطيئة :

من العبث أن نحاول ايجاد أى زلة أو حتى هفوة واحدة تمس الصفات الأخلاقية فى حياة يسوع. لم يعش أى كائن على الأرض بلا ايذاء لغيره سواه. المسيح لم يؤذ أحداً ، ولم يستغل أحداً. لم ينطق بكلمة باطلة غير ضرورية ، ولم يرتكب أى فعل خاطئ. كان يرتفع ارتفاعاً

رصيناً فوق ملذات ومواقف وأفكار هذا العالم ، ولا يعبأ بغنى ، ولا بمظاهر ولا بشهرة ولا مدح الناس .

يقول بيتر باين فى كتابه شهادة المسيح للمسيحية : " ليس هناك رذيلة معروفة بين النـــاس ، يمكن أن نظن أن لها علاقة بيسوع المسيح ... فالجموح المجنون لاظهار الذات يبهت ، حين نبحث عنه فى دوافع أعمال المسيح. والحسيات الجسدية تتكمش وتهرب من نقائه الـــسماوى. التزييف لا يمكن أن يلوثه ، فهو الحق المتجسد. ينسى الظلم بجوار عدله الذى لا يخطـــئ ، كذلك رذيلة الطمع تبتلع فى فرط رأفته ومحبته. وكل انفعال جامح يتلاشى فى حكمته وتجرده الإلهى " .

+ قد يسوق البعض واقعة غضب يسوع على تدنيس الهيكل على كونها انفجـــاراً انفعاليـــاً ، ويتخذون منها حجة بأن المسيح لم يكن متحرراً من الأخطاء البشرية ولكن التأثير نفسه الذى أحدثه هذا الغضب ، يبين أنه لم يكن انفجاراً انفعالياً ، بل عمل عادل ولائق بمصلح دينـــى ، مُذكى بغيرة مقدسة وصحيحة لتكريم رب الهيكل. لم يكن عن عقد نفسية لتغطية ضعف ، بل بسلطان وسيادة ، أبكم المعثرين على الفور رغم تفوقهم فى القوة البدنية الطبيعية ، مما جعلهم يستسلمون للعقاب الذى يستحقونه دون أن ينبثوا ببنت شفة. لقد تملكهم الرعب فـــى حـــضرة قوته التى تفوق البشر .

كذلك حينما لعن يسوع شجرة التين غير المثمرة ، قد يوردها بعض المنتقدين ... ولكن النقـــد هنا أقل أهمية ، لأنه من الواضح أنها كانت حادثة رمزية لبيان المصير المخيف لليهود غيـــر التائبين ، الذى سيحل بهم حين خربت أورشليم .

هاتان الحادثتان على عكس ما ذهب إليه المنتقدون ، يثبتان منطقياً بوجود الإلوهية فى شخص المسيح ، وعلينا أن نعترف بهذا ، لأنهما يجعلاننا ندرك يسوع على كونه هـــو رب الهيكـــل ورب الخليقة .

إن البرارة المطلقة التى كانت ليسوع ، يمكننا أن نلمسها ، ليس فقط من خلو سجل حياته من أى كلمة أو فعل خاطئ يوخذ عليه بل ، ايجابياً أيضاً من شهادة يوحنا المعمدان والرسل حين سجدوا أمام عظمته ، حين رأوا فيه البر والقداسة والنقاء ، والتنزيه عن كل أنانية ومـــا هـــو دنيوى ... ولقد أجمع البشيرون – وهم صادقون – على المجاهرة بهذا التكريم التلقائى والذى بلا حدود .

صفات يسوع السامية جداً أقر بها الجميع حتى أعداؤه :

بيلاطس الوالى الوثنى وزوجته ارتعبا من الخوف أمامه ، حتى أن بيلاطس غسل يديه معلناً أمام الحانقين بأنه برئ من دم هذا البار ... وهو الذى يمثل عدالة القانون الرومانى .

أيضاً قائد المائة الرومانى ، الشهير بالغلظة ، اعترف وهو تحت الصليب باسم كل الناظرين المرعوبين " بالحقيقة كان هذا ابن الله " .
وحتى يهوذا نفسه الذى كان شاهداً على كل تفاصيل حياته العامة والخاصة اعترف بيأس : " أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً " .
وحتى الطبيعة الصامتة تجاوبت فى مشاركة عجيبة ، حيث امتلأت بالسحب القاتمة التى جعلت الشمس تظلم من فوق ، والأرض تزلزلت من تحت ، وهكذا اتحدا في اعطاء شهادة حية أثناء صلبه أنه ممتلئ بالنقاوة الإلهية ، وهو الرب .

١٥- على دراية أنه بلا خطيئة:

قد يّدعي البعض أن الرسل الذين كتبوا الأناجيل عن حياة يسوع ، لم يكونوا على دراية بكل جوانب حياته ، أو أنهم أخطأوا في تقديرهم لصفات المسيح. وهذا ادعاء باطل ، لأنه بجانب شهادتهم عنه ، شهد هو عن نفسه بأنه متحرر تماماً من أي خطيئة ... (من منكم يبكتني على خطية) [يو٨: ٤٦] .
إن الغرض الذي من أجله جاء المسيح هو خلاص الخطاة من خطاياهم ، وهنا يفترض تحرره شخصياً من أي هفوة أو خطية ، وإلا لكان هو نفسه محتاجاً إلى خلاص ، وبناءً عليه لابد أن يكون واعياً بأنه بلا خطية ... وهذا هو الانطباع الذي نأخذه من سلوكياته في الحياة العامة.
لم يظهر في أي موقف من المواقف أنه في حاجة إلى خلاص شخصي ، بل يعرف نفسه بأنه في تناغم غير منقطع مع أبيه السماوي. بينما هو يدعو الآخرين بكل حماس أن يتوبوا ، يقف هو غير محتاج إلى توبة ولا إلى تجديد ولا لولادة ثانية ، ولكن ببساطة وتدرج يكشف قواه الأخلاقية. وبينما يوصي اتباعه في نموذج الصلاة التي عملها لتلاميذه [أبانا الذي في السموات ...] أن يطلبوا غفران ذنوبهم تماماً كما يطلبون خبزهم اليومي ، نجده هو نفسه لم يطلب من الله أبداً صفحاً أو غفراناً إلا لآخرين .
خالط الخطاة وهو في ملء التحرر من الخطية كي يخلص الخطاة بكل حب وشوق. لم يستنكف يسوع أن يخالط الخطاة ، هذه حقيقة دونتها الأناجيل فسرها أنت القارئ كما تريد ، هذا لا يهم ، ولكن علينا أن لا ننسي موقفه العلني الشجاع حين وقف أمام أعدائه العتاة وتحداهم بالقول : " من منكم يبكتني على خطية ؟ " بهذا السؤال الذي يبقي بلا إجابة حتى اليوم ، يستثني يسوع نفسه من التلوث بالخطايا الشائعة ، وذنوب البشر السائدة ، لأن أي إنسان آخر لو قال هذا السؤال ، فهو إما مغالط كبير ، أو مغرور في ذروة الاعتداد بالذات الذي وصل إلى درجة الجنون نفسه ... فمعروف أن كل صلاح الإنسان وبره هو كنجاسة الطامث ... أما هذا السؤال من فم يسوع ، فنحن نقبل ونقر بأنه الشخص الوحيد المنتصر

داخياً والمذكي ، حيث يقف في مستوي أعلا بما لايقاس عن أي شخص يجرؤ أن يجد عليه خطية يبكته عليها .

١٦- الأستثناء الوحيد بين خطاة :

لقد عرف يسوع أنه متحرر من الخطايا والذنوب بيقين مطلق وذلك :

من تدابيره الأخلاقية الفاضلة جداً ومن رسالته كمخلص للخطاة ومن إعلانه المباشر أنه هكذا. والتفسير المنطقي الوحيد هو أن المسيح يختلف عن كل البشر الآخرين ، ليس في المستوي فقط بل في النوع أيضاً ، وخلو يسوع من الخطية يجعله في مستوي الألوهية العظمي ... وهذه الحقيقة هي التي ينبغي أن يقبلها الجميع .

هناك نظرية تنادي بألوهية الكون ، وأن الطبيعة البشرية تطور نفسها حتى يمكنها أن لا تخطئ وتعود إلى طبيعتها ما قبل السقوط. ونحن نشجب هذه النظرية بشدة ... فالطبيعة البشرية حالياً ليست بلا خطية ، ولم تكن أبداً خطية بعد السقوط ، ولكن عتق البشرية من الخطية لا يكون إلا بفداء المسيح ... الذي كان هو الحالة الوحيدة التي شهدتها الأرض. وخلو المسيح من الخطية لا يمكن أن يُفسر إلا على أساس سكني الله فيه بصورة غير اعتيادية. الأمر الذي لم يحدث لإنسان آخر لا قبله ولا بعده.

الإنجيل ، وضمير الإنسان ، والاختبار اليومي تتفق جميعاً في اقرار الحقيقة الكونية للخطيئة. والخطيئة هي وراء تاريخ البؤس العميق المظلم ، الخطية هي حجر العثرة لكل منطق عاقل ، إنها مشكلة المشاكل. الخطية هي البذرة التي أثمرت كل ويلات البشرية وبؤسها. ويذخر التراث القديم لكل الأمم بالمراثي الأدبية عن هذه الحقيقة العنيدة والمريعة أكثر من كل الحقائق. كل الفلاسفة ، والمؤرخين والشعراء الوثنيين أدركوا هذا. يقول بلوتارك : " إن الأهواء الشريرة متولدة في الإنسان ، وهي لا تأتيه من الخارج ، وما لم يتدرب الإنسان بصرامة كي يتهذب ، فسوف لا يكون أقل من وحوش الغابات المفترسة " .

يوجد صراع دائم بين السماء والجحيم ، وبين الخير والشر في داخل كل إنسان . وبالنسبة للجيل الذي جاء فيه المسيح على الأرض ، كان المستوي الأخلاقي متدنياً جداً كما شهد حكماء تلك العصور مثل سينكاً وتاسيتوس ، وبيرسيوس ، وجوفينال حيث أعطوا أسوأ التقارير التي تدعم الصورة المعتمة التي رسمها الرسول بولس في الأصحاح الأول من رسالة رومية. يقول سينكا الفيلسوف : " لقد ملأت الرذيلة والجريمة كل إنسان ، الإثم متغلغل في كل قلب ، والبراءة لم تعد نادرة فقط بل قد انمحت تماماً " .

كذلك الإمبراطور الفيلسوف مرقس أوريليوس شكي بأنه " لا أمانة ولا إحساس بالشرف أو البر أو الحق ... جميعها طارت من الأرض الواسعة إلى السماء " .

إن كانت هذه هي شهادة حكماء الوثنيين ، فماذا نقول عن شهادة المسيحيين الذين قد تعمق عندهم الإحساس بالخطيئة والإثم لزيادة حساسيتهم لها وذلك لمعرفتهم حقيقة قداسة الله ، واختبارهم لنعمته المخلصة ؟ " .

إن العالم المسيحي بأكمله ، وبلا استثناء ، يوافق على أن تعاليم الأسفار المقدسة هي أن الكون والطبيعة البشرية قد فسدت وحادت وانحرفت منذ عصيان آدم الأول .

لا يوجد إنسان صادق ، ولم يُدن نفسه بالسقوط في حماقة أو ضعف. واكتشاف الإنسان أنه خاطئ وغير مستحق يساعده على اكتشاف نفسه الحقيقية بلا تزييف وهذا يساعده على التقدم في حياة الفضيلة. لا يوجد قديس واحد لم يختبر الولادة الجديدة من فوق ، والتوبة التي تشبه الانقلاب من حياة الخطية إلى حياة القداسة ثم يزداد احتياجه اليومي إلى توبة وغفران إلهي. قديسون عظماء كمثل الرسول بولس والقديس أوغسطينوس ، مراً في صراع عنيف ، وثورة حتى الجذور ، واستقر كل فكرهم اللاهوتي ، واختبارهم الديني العملي على الإحساس بالاختلاف بين الخطية والنعمة .

ومع وباء الخطية الذي لم يُعتق منه أي إنسان ، جاء المسيح كإستثناء وحيد للقاعدة الكونية جاء المسيح كشخص يفكر كإنسان ، ويحس كإنسان ، يتكلم ويعمل ويتألم ويموت كإنسان. محاط بخطاة من جميع الجهات ، مع أقصي ما يكون الإحساس بالخطية ، وأعمق مشاعر الشفقة على الخطاة ، بادئاً رسالته الإلهية بالدعوة : " توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات " أم هو فلم يمسه أي شر من شرور الدينا ، ولم يضع نفسه أبداً في وضع خاطئ أمام الله. لم يذرف دمعة توبة واحدة ، ولم يندم على فكرة واحدة من أفكاره أو كلمة واحدة من كلماته ، أو فعل واحد من أفعاله. لم يكن محتاجاً إلى غفران إلهي قط ، ولم يسأل خلاصاً لنفسه. قابل بشجاعة كل أعدائه في الحاضر والمستقبل بيقينه المطلق في طهارته ، ونقاوته أمام الله والناس .

إنها حقيقة مدهشة أن يكون مُخلص محاط بعالم خاطئ وهو بلا خطيئة ، حقاً إنها أسمي معجزة أخلاقية في التاريخ. ولكن كونه حراً من الخطايا السائدة ، وذنوب البشر المشاعة ، هي مجرد الجانب السلبي في صفاته وسيزداد فهمنا لها مع التأمل في الجانب الإيجابي – أي كماله المطلق ، الأخلاقي والديني .

++++++++++

الفصل السادس

كمال القداسة

أجمع الجميع بمن فيهم الملحدين والعقلانيين وعلى مستوي العالم كله ، أن تعاليم المسيح هـي أسمي وأنقي منظومة أخلاقية ، وهي قيم غاية في البهاء والعظمة ، الأمر الذي يلقـي بكـل الوصايا الأخلاقية الأخرى لحكماء البشر وقواعدهم السلوكية بعيداً في سلة مهملات !!.

الموعظة على الجبل هي وحدها التي تستحق الاحترام بلا منازع أكثـر مـن كـل الأقـوال المشوشة التي يدعونها أقوال الحكماء المأثورة. من الصعب لأي إنسان أن يقاوم تأثر الموعظة على الجبل عند قراءتها أو سماعها لأول مرة. فعندها سمعها نابليون بونابارت لأول مرة وهو منفاه عبّر عن انبهاره الشديد وأبدي اعجابه بنقاوة وسمو وجمال الأخلاقيات التي تحتويهـا ، وأنضم نابليون أيضاً إلى الجموع الذين قيل عنهم " فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه " .

١٧- قداسة في السلوك :

إن الاختلاف بين المسيح ، وبين الذين كتبوا عن القيم والأخلاق سـواءً فـي الماضـي أم الحاضر هو اختلاف شاسع ، هذا لو نظرنا من زاوية تطبيق كل من نادي بأخلاقيات معينـة بعد أن طبقها في سلوكياته هو شخصياً .

وهذا هو السر في أن جميع المنظومات الأخلاقية للفلاسفة مجتمعين لم تغير في العالم شـيئاً. فالكلمات في الخطب والمواعظ والمخطوطات والكتب هي لا شيء أن لم تقتـرن بالأفعـال. فالحياة المقدسة هي اولاً ، وأخيراً قوة الخير ، فهـي أروع مـن كـل القواعـد الأخلاقيـة والمقالات. والاختلاف بين يسوع وكل حكماء العالم في هذا هو اختلاف جذري وأساسـي ، حتى أن المقارنة تتوقف .

لقد كان شيشرون أنبل الفلاسفة والرومان القدامي ، مشهوداً له بأنه يمثـل أنقـي الخـصال الرومانية القديمة ، رغم تفاهاته وأباطيله المتراكمة ! هذا اعترف أنه لم يجد أي حكيم كامل ، في كل حياته وإن الفلسفة تُعلم فقط ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ، دون أن يوجد مثل هذا الإنسان الكامل في الفضيلة على الأرض !.

ومن المعروف جيداً أن حكماء روما واليونان أباحوا العبودية ، والقهر ، والانتقام ، وقتـل الأطفال ، واغتصاب الصغار ، وتعدد الزوجات والتسري ... وقائمة طويلـة مـن الرذائـل الأسوأ ولكل فيلسوف سقطاته الفظيعة ، فسينكا على سبيل المثال وجد مرتشي وطماع ، وهكذا كل الباقين مباعدين بين أنقي قيمهم الأخلاقية وبين سلوكياتهم الشخصية ...

أعظم قديسي العهد القديم ، لم يسلموا من الخطأ حتى بمساندة النعمة الإلهيـة ، فلـم يكونـوا معصومين من الخطية ، وبعضهم تلوث بدم برئ وزني .

ويمكننا أن نؤكد بملء الثقة أن أحكم وأفضل البشر حتى بين الأمم المسيحية لم يبلغوا أبداً إلى أعلا من مستوي عدم كمالهم في الصلاح .

ولكن ما هو الحال بالنسبة للمسيح ؟ لقد نفذ بالتمام تعاليمه كاملة في حياته وسلوكه ، لقد كان عاملاً بما علم به ، إذ عمله كله. وعظ بحياته الخاصة وعاش عقيدته. كان هو المثال الحـي لمستوي الفضيلة والقداسة المثالية ، والمثل الأعلا لكل من يريد أن يكون نقياً وصالحاً ونبيلاً في نظر الله والناس. غير المؤمنين به اعترفوا بهذه الحقيقة ... يقول ثيودور باركر : " لقـد جمع المسيح في شخصه اسمي الوصايا ، وذروة الأعمال الإلهية كأقصي ما يمكـن للأنبيـاء والحكماء أن يحلموا به. لقد ارتفع المسيح فوق كل تعصبات جيله سواءً كانت تعصب ديني أو عرقي أو مذهبي ، معطياً المجال لروح الله أن يعمل فيه من أجل الجميع. ورغم أن الناموس [الذي هو الوصايا الإلهية في العهد القديم] مقدس وحق وجدير بـالتكريم ، إلا أنـه همـش شكلياته وذبائحه وهيكله وكهنوته ، متجنباً كلا الجمود أو المراوغة فـي تعـاليم النـاموس ، وسكب عوضاً عنه عقيدة جميلة كالنور ، وسامية كالسماء وحقيقية من الله " .

وأيضاً رينان [الشهير بالمارق] ، اعترف أن صفات يسوع لو أُخذت بحياديـة ، سـنجد أن لامثيل له في الأخلاق ، سواءً في الكلام أم العمل ... في التعليم أم في الحياة العملية ، ويبقي المسيح بطل الناصرة بلا نظير ، ويبقي مجده كاملاً ومتجدداً إلى الأبد " .

١٨- قدوس في كل علاقاته :

نحن نري المسيح مندمجاً في كل علاقات الحياة الأساسية بنجاح لا مثيل له ، كابن ، وكأخ ، وكصديق ، وكمواطن ، وكمعلم. نجده يتعامل بسلاسة مع كل طبقات المجتمع خطاة وقديسين، مع فقراء وأغنياء ، مع مرضي وأصحاء ، مع أطفال صغار ورجال كاملين ، ونساء ، مـع صيادين بسطاء وكتبة متفقهين ، مع عشارين محتقرين ، وأعـضاء مـوقرين فـي مجمـع السنهدريم اليهودي. مع أصدقاء وأعداد ، مع تلاميذ معجبين بـه ، وأشـخاص يـضطهدونه بمرارة. مرة مع أفراد على حدة كنيقوديموس والمرأة السامرية ، وأحيانا في دائـرة الأثنـي عشر المتآلفين معه ، ومرات مع جموع غفيرة من الشعب .

ونحن نجده ، فى مجمع الهيكل ، أو فى البيت أو فى رحلات فى قرى ومدن أورشليم ، فـى الصحارى وعلى الجبال ، أو على شواطئ نهر الأردن وضفاف بحر الجليل ، فى احتفـالات الأعراس وعند قبر مهيب ، فى أحزان جثيمان المريعة ، وفى قاعات المحاكمات أمام رؤساء كهنة ، أو الملك الرومانى الحاكم ، أو وسط جنود غلاظ وجمهور متعصب عبـر كـل آلام صليب الجلجثة .

فى كل هذه الأحوال ، والظروف المختلفة ، حيث تراكمت كل هذه العلاقات فى ثلاث سنوات من خدمته الجهارية ... نجده يواجه هذا كله بسمو واستقامة دون أن يلام على أى تـصرف

غير لائق ... وكما أن الله غير متغير عبر الأسفار المقدسة كلها ، هكذا المسيح هو هو عبر البشائر كلها .
فى كتابه " تأملات فى جوهر المسيح " لاحظ جيوزوت ، وهو على حق : " نحن نرى ذروة الكمال فى حياة يسوع وفى نفسه وفى كلامه وفى أفعاله ... فى وحدة مستمرة لا تتغير. أنه يتقدم فى كل الظروف التى يعيشها ولكن هذا التقدم والنمو لا يُحدث فى نفسه أى تغير فى الصفات أو تبديل للهدف. فكما ظهر وهو فى الثانية عشر من عمره فى الهيكل مشبعاً بالاحساس بالالوهية حين قال ، ينبغى أن أكون فيما لأبى ، هكذا يستمر ويُعبر عن نفس هذا الاحساس فى كل اتجاهات خدمته العامة ، وفى كل مكان ، وتحت أى ظرف من الظروف ، تميز بنفس الروح ، ويرسل نفس النور ، ويعلن نفس الوصايا " .
لقد قام بكل ما يجب نحو الله ونحو الانسان ونحو ذاته ، بسهولة كاملة وحرية . وأعطى تطبيقاً نموذجياً كلياً لوصايا الناموس ، بالروح وليس بالحرف. حياته هى خدمة متواصلة لا تنقطع لله ، مطيعاً طاعة ايجابية لإرادة الله المقدسة وبلا سلبيات ... ويمكن القول أن حياته هى عمل عظيم واحد لمحبة مطلقه لله ومحبة للانسان ، حياة مكرسة لمجد أبيه السمائى ، وخلاص البشرية الساقطة. الجموع بهتوا إلى الغاية حين رأوا أعماله ، وكل من يتأمل حياته لابد وأن يقول " أنه عمل كل شئ حسناً " .

++++++++++

الفصل السابع

متفاعل مع الناس

فلنلق نظرة الآن على علاقات يسوع مع مختلف أنواع الناس ...

١٩- كيف عامل أمه العذراء :

علاقة المسيح بوالدته كنت علاقة فريدة من نوعها ، وهى تجمع بين ألوهيته وبشريته فى آن واحد. إنه يعاملها باحترام ورقة كابن وأيضاً بسلطان ورفعة كونه هو المسيا. إنه يخضع لها كإنسان ، وأيضاً يأمرها هى أن تطيعه وتخضع له وتتبعه كمخلص لها وقدوة ... " وكان خاضعاً لوالديه " وبهذا أكمل فضيلة الابن من الناحية البشرية ، ولكنه فى سن الثانية عشر أخبرهم بأنه ملتزم بأبيه السماوى كهدف أسمى .
وفى عرس قانا الجليل ، وعندما أرادت القديسة مريم أن تتدخل بنية حسنة فى رسالته المسيانية ، أنّب تسرعها بلطف قائلاً : " ما لى ولك يا امرأة ، لم تأتِ ساعتى بعد " ولقد استجابت مريم بكل توقير وعلى الفور .

وفى حالة أخرى عندما أتت مريم العذراء مع إخوته وأخواته – سواءً كانوا أبناء وبنات أعمامه وعماته أو خالاته ، أو أبناء يوسف من زواج سابق ، فهذا لا يغير هنا من الأمر شيئاً – تزاحموا وسط الجموع الملتفه حوله ، ويريدون أن يتكلموا معه ... مد يده نحو تلاميذه وقال " ها أمى وأخوتى ، لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السماء هو أخى وأختى وأمى " . وعندما رفعت امرأة صوتها وقالت له : " طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما " أجاب " بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه " .

ولقد ظهر مشاعره البنوية فى لحظات موته على الصليب عندما سلم أمه للتلميذ الذى كان يضع رأسه على صدره بكلمات مؤثرة جداً " يا امرأة هوذا ابنك ". إنه الصليب الذى وطد العلاقات الروحية النقية وجعلها أعز وأقوى من روابط الدم ولكن من الواضح أنه ليس يخاطب مريم العذراء بـ " أمى " بل ببساطة " امرأة " مشيراً إلى تحقيق الرؤى النبوية " نسل المرأة يسحق رأس الحية " .

٢٠- علاقته مع تلاميذه :

كان الحوار بين المسيح وتلاميذه دائماً حواراً جاداً جوهرياً ، وبألفة ولكنه يوحى بالخشوع والاحترام. لقد أحبوه وعبدوه كأبٍ وكربٍ واضعين كل ثقتهم فيه كمخلصهم. لقد دعاهم أصدقاء وغسل أقدامهم فى اتضاع عجيب. لم يحجب شيئاً مما يستطيعون أن يحتملوا أن يخبرهم به من الأمور المفيدة لهم. لقد احتمل بوداعة وصبر جهلهم ، وقلة ايمانهم ومفهومهم الجسدانى عن المسيا ، وسوء فهمهم لأقواله الروحانية السامية. لقد سامح انكار بطرس له ، وكان على استعداد أن يسامح حتى خيانة يهوذا ، لو أنه هرع إلى الصليب ذارفاً دموع الندامة عوضاً عن شنق نفسه .

لقد وعد تلاميذه بمجازاة مجدٍ فى السماء ، أما فى هذا العالم الخاطئ فقد أنذرهم أنهم سيلاقون الفقر والكراهية والاضطهاد والموت. أرسلهم كحملان وسط ذئاب ، ورغم هذا ، كانوا يشعرون بانجذاب لا يقاوم نحوه ، وبحث عن الكل ودعاهم لاتباعه .

وحتى حينما يعمل ما يناقض تعصبهم اليهودى ، كمحادثة مع امرأة سامرية مثلاً ، لم يجرؤ أحداً منهم أن يراجعه فى هذا الأمر ، إذ كانوا مقتنعين أن معلمهم لا يعمل شيئاً خطأ على الاطلاق ، أو أمر لا لزوم له .

اختار يسوع الاثنى عشر من بسطاء وصيادى الجليل الجهلة ولولا استجابتهم لدعوته واتباعه ورضاهم بالعيش تحت قيادة يسوع وارشاده ، لماتوا ودفنوا ككل المجهولين فى الأرض ، ولكنهم أصبحوا بفضله من عظماء المعلمين وصانعى الخير للجنس البشرى ! فهل حدث مثل هذا فى التاريخ كله ؟

٢١- نحو الأطفال :

كان يسوع صديقاً للأطفال كمثل كل الأبرار. لأن العظمة الحقيقية فى صفات الأطفـــال هـــى البراءة والتواضع والبساطة والثقة الطفولية ، وجميعها تذكرنا بصفات أهل الفردوس. كما أن لها روعة لا تقاوم. [لكل هذه المعانى أوصى يسوع : إن لم ترجعوا وتصيروا مثـــل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات (مت١٨:٣) ومن لا يقبل ملكوت الله مثـــل ولـــد فلـــن يدخلـــه (مر١٠:١٥)] .

آخر وصية محبوبة حث عليها يوحنا الرسول هى : " أيها الأولاد ، حبوا بعـــضكم بعـــضاً " وجيرسون فى هذا العصر ، الذى عمل كبير أساتذة جامعة باريس ، وكانـــت حياتـــه مليئـــة بمشغوليات التعليم العالى والادارة الكنسية ، قيل أنه ختم حياته بتعليم الأطفـــال الـــصغار !! وحتى المصلحون الكبار ، لم ينسوا أن يرسلوا خطابات إلى أطفالهم الصغار فى البيت بينمـــا هم كانوا يخوضون أشرس المعارك ، وبعضهم كان يراسل أطفالاً فى الملاجئ ...

كل هؤلاء استلهموا عمل المحبة هذا من ذاك الذى احتضن الأطفال قـــائلاً : " دعـــوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات " والذى شكر الآب السماوى لأنـــه أعلن مشوراته عن حنانه على الجنس البشرى للأطفال. وكذلك الذى أوصى اتباعه بأن يكون لهم روح مثل الأطفال كضرورة حتمية للدخول إلى الملكوت .

٢٢- نحو النساء:

حينما كان يتكلم يسوع مع نساء ، نري أن الحوار كان إلهياً كما هو بشرياً في آن واحد. كـــم كان ودوداً وحراً على عكس تعصبات اليهود ، والتحقير الشرقي للمرأة ! كم كان يسمو ويخلو من الشهوات الحسية ! تعاملات يسوع مع النساء كانت تتسم بالألفة مع النقاء ، الـــسيادة مـــع الرقة ...

لم يرتبط المسيح بإحدي بنات حواء ، لأن مخلص البشرية على مستوي المسكونة كلها ، قـــد كونّ من كل المؤمنين به كنيسة واحدة هي التي اتخذها عروساً له. [لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه (أف ٥: ٣٠) ، وكفرح العريس يفرح بك إلهك (أش ٦٢:٥) وكما عبّر الرسول بولس : لأني خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح (٢كو ١١: ٢)] .

رغم هذا ، لم يحتقر يسوع عطايا نساء تقيات كن يخدمنه من أموالهن. وكان يستريح من وقت لآخر في بيت عنيا حيث مرثا المشغولة في الخدمة العملية ، ومريم المتأملة جالسة عند قدميه لتسمع كلمات النعمة الخارجة من فمه الطاهر ولعازر الحبيب .

+ أنين المرأة وهي تتمخض ، ثم فرح الأم بميلاد إنسان جديد ، قد بلغ مسامع أذنيه الشفوقتين وذاك الذي هو نقاوة النقاء ، وأنقي نقاء ، الذي أدان مجرد النظرة الشهوانية للمرأة وجعلهـــا تساوي الزني في القلب ، سمح لامرأة سيئة السمعة أن تغسل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر

رأسها في بيت فريسي ، وصفح عن فضيحة زانية مخلصاً أياها من أيدي راجميها ثم قال لها : " اذهبي ولا تعودي تخطئي " .

كم كان حديثه مع المرأة السامرية برحمة واهتمام عند بئر يعقوب في قرية سوخار ، حيث حرك ضميرها في أدق النقاط ، وأنار ذهنها بعبادة الله الكائن في كل مكان ، والعطش إلى الماء الحي. ولقد ظهر المسيح في مجد قيامته لمريم المجدلية الباكية ، وحوّل بكاءها إلى فرح وتعزية ...

وهكذا نري أن يسوع قد تعامل مع النساء كصديق وأخ ، وأيضاً كرب ومخلص ، فمن ثم كان انجذابهن له دوناً عن أى كائن آخر ، انجذاب المحبة بملء مشاعر التوقير ، وعن اقتناع مطلق أنه هو وحده الذى يشبع أعمق احتياجاتهن بأشواق مضطرمة نحو الله. كن آخر من ترك الصليب ، وأول من استعلن لهن مجد القيامة. ومنذ ذلك الوقت وعلى مدى الأجيال المتعاقبة ، نرى نساء كثيرات التجأن إليه فى عبادة وتقوى ، منهن كن يطلبن المغفرة ونلن منه السلام ، ومنهن من تكرسن بمشاعر جياشة وقوية ورقيقة له ، ورحن يعملن لخير البشر رفقائهن ...

ترى ماذا تكون المرأة بدون المسيح ؟

++++++++++

الفصل الثامن

تدين وفضائل

أول ما يبهرنا فى كمالات المسيح الفريدة ، هو توافق نادر بين محبة الله ومحبة الانسان ، التدين مع الفضائل ، والأخلاق مع الاشفاق ! كان المسيح أكثر من تقى ، وأكثر من انسان ذى خلق ؛ أنه قدوس بحسب مفهوم المعنى المباشر للكلمة. يوجد جمال إلهى فى طبعه ، حتى أن مجرد التأمل فيه يعطى نقاء وسلاماً وبركة فى النفس !! .

٢٣- شركة لا تنقطع مع الله :

تقوى الله مع روح الورع والخشوع كان هو جوهر منظومة يسوع الأخلاقية وهذا رفعه أعلا من مستوى الشرائع ، ومجرد طاعة الناموس. كل فعل أخلاقى عمله المسيح ، كان نابعاً من محبة فائقة لله ، وفى نفس الوقت مراعياً أمور البشر الزمنية والأبدية معاً !

الأرضية التى ارتكز عليها عمله الأخلاقى كان اتحاده الدائم مع أبيه السماوى فى أصالة صميمية. كان يعيد كل شئ إلهى. ومبكراً ، وهو فى سن الثانية عشر وجد كل حياته وبهجته فى الأمور المختصة بالآب وكان فعل مشيئة الآب الذى أرسله واتمام عمله هو طعامه اليومى. كان يتطلع إلى أبيه السماوى فى صلاة ، قبل كل عمل هام قام به ... وعلم تلاميذه

هذا النموذج من الصلاة [أبانا الذى فى السموات ...] التى لبساطتها وتركيزها وملائمتهـا ، لا نجد نموذجاً آخر يفوقها ...

كان باستمرار يختلى فى الجبال والأماكن المنعزلة للصلاة ... وكان يقضى الأيام والليالى فى تأمل مقدس. ولكن لانتظامه واعتياده على الشركة المستمرة مع يهوه العظـيم ، اسـتطاع أن يحافظ عليها أيضاً وهو وسط الجموع بل كان يحوّل الازدحام والصخب إلى خلوة تقوية مـع الله ! .

أحاسيسه ومشاعره الذاتية كانت فى كل دقيقة وفى كل الحالات منتعشة ومـشبعة بالاحـساس بالله ... وحتى حينما ضغطته الأحزان على الصليب ، وكحامل لخطايا العالم كله ، وكنائـب حنون عن بؤس الجنس البشرى ، صرخ بصوت عظيم : " إلهى إلهى لمـاذا تركتنـى " ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الاتحاد بين الابن والآب قد انكسر أو حتى ارتخى. كلا ... ولكنـه كان مختفياً فى غياهب خطايا البشر المعتمة كمثل اختفاء الشمس بفعل سحابة سوداء عابرة ، فالاستمتاع بالشمس يكون قد انسحب من الاحساس فى حين أن وجودهـا مـازال مـستمراً وسرعان ما تعود حين تنقشع تلك السحابة ...

لأن المسيح بعد تلك الصرخة وعلى الفور قال " يا أبتاه في يديك استودع روحي " ثـم قـال بنبرة الانتصار " قد أكمل ". إلى هذه الدرجة من القوة والشدة كان اتحاد المسيح بـالآب دون افتراق لحظة واحدة ولا طرفة عين ، وبالتالي أصبح المفهوم المسيحي للإنسان المتدين بأنـه هو الإنسان الذي يعيش في شركة مع الله كل حياته .

٢٤- خدمة نشطة للإنسان :

مع كل هذا ، لم تكن التقوي الدينية عند يسوع هي نوع من التأمـل الخامـل ، أو تـصوف الاختلاء في صومعة ، أو نوع من الاستمتاع الأناني ، بل التدين عند المسيح كان تديناً عملياً إلى أبعد غاية ، نشطاً في أعمال الخير ، فغايته كانت أن يتحول العالم إلى ملكـوت الله بـأن يخلق من جديد ...

كان يسوع يجول يصنع خيراً ، حياته سلسلة متواصلة من أعمال الخير ، وهو يطبق الفضائل على نحو نشط. كلامه وأفعاله كلها نابعة من اتحاده الصميمي مع الآب ، دائما نفسه منتعـشة بالحب الإلهي ، ولم يكن له هدف سوي مجد الله ، وسعادة الإنسان ...

++++++++++

الفصل التاسع

تناغم الفضائل كلها في المسيح
وانسجام كل مفاعيل النعمة

فضائل المسيح منظومة كاملة ومتكاملة ، فهو لم يبلغ الكمال في كل الفضائل فحسب ، بل مارس كل الفضائل بتناغم وانسجام بحيث لا تتعارض فضيلة مع أخري ، وكذلك مفاعيل النعمة التي قد تبدو متناقضة بعضها مع بعض في الظاهر ولكنها في المسيح تتوحد بكل سلاسة. وهذا ما يميزه نوع خاص عن كل البشر. وهذه السمة تعطي ليسوع اللمسات النهائية لجمال قداسته التي هي أسمي صورة يمكن أن نتأملها ، والتي بهرت أفضل من كتبوا عن المسيح .

٢٥- غير متطرف إلى جانب واحد :

كان المسيح متحرراً ، ولم يقيد نفسه بكلياته في جانب واحد ، ولم يكن إنساناً أسير فكرة واحدة ، ولا إنسان الفضيلة الواحدة التي تعلو على حساب باقي الفضائل ، الأمر الذي ضعف فيه عظماء الأرض قاطبة ، إذ أفنوا كل قواهم في اتجاه واحد على حساب ضرورات أخري كثيرة ... القوي الأخلاقية التي كانت في المسيح كانت معتدلة ومتناسقة الواحدة مع الأخري ... كان لا يغالي في جزئية أخلاقية بلا مبرر ، ولا يسمح أن يتطرف في إحداها ، لذلك بقيت منظومته الأخلاقية مضطرمة فيه كجذوة مشتعلة على الدوام بلا خفوت طوال الحياة .

أخلاقياته الكاملة كانت محكومة بعمل النعمة ، لذلك لم تفقد اتزانها وتوازناتها بصورة رائعة. لم يحتاج أن يُعدّل ، أو يعيد صياغة مبادئ ولا صفاته الشخصية حيث كانت هي صفات الشخصية السوية الكاملة والكلية الرزانة ، لذلك استمرت من البداية إلى النهاية .

لا يمكننا أن ننسب إلى يسوع أي نوع من اندفاع الهوي ، فلم يكن حاد الطبع كبطرس ، ولا غضوباً كبولس ، ولا رومانسياً كيوحنا ، ولكنه جمع في ذاته حيوية الطبع الحار بدون تعالي أو حماسة فارغة ، وأيضاً مشاعر غضب بدون عنف ، وجدية الرومانسية بدون عبوسة ، وأيضاً هدوء الطمأنينة بدون بلادة وجمود .

وحتى بالنسبة للناموس ، كان لا يحب التظاهر بالتقوي ولم يدخل في نسكيات حماسية ، فمع التزامه الشديد بالناموس كان يتحرك في إطار من الحرية والاخلاص الشديد. كان المسيح هادئاً دائماً ، ويقظاً ، ومتحكماً في ذاته وانفعالاته. بجوار تساميه المطلق والمستمر فوق أمور الدينا ، كان يختلط مع المجتمع في حرية ، مجتمع الرجال والنساء ، يأكل مع عشارين وخطاة ، ويحتضن الأطفال ويباركهم. شرف عرساً بوجوده المفرح ، وذرف الدموع عند قبر صديق معطياً البهجة بسلطانه الإلهي [إذ أقام الميت] .

أعجب جمال زنابق الحقل ، وعظم الحياة الأسرية واتخذ من الدور الذي يقوم به رب البيت في أمثاله نماذجاً ليصور الحقائق السامية عن ملكوت السموات ، كانت فضائله صحية بلا تزمت مع اخلاص ورجوله ، وفي نفس الوقت اجتماعية ومثمرة. لم يكن أبداً عبوساً منفراً ، بل دائماً في ملء الحنان مع فرح برئ وسرور قلبي. فهو مع كونه أنقي وأقدس إنسان ، أمد عرساً بالخمر ، وقدم العجل المسمن والموسيقي والرقص للترحاب بالابن الضال العائد إلى بيت أبيه ، حتى أنه حرك أحقاد أعدائه ونميمتهم بأن قالوا عنه أنه أكول وشريب خمر ، وأنه أتي ليأكل ويشرب !!!

٢٦- توازن في صفاته المزاجية:

لم تكن غيرته ناشئة عن هوي انفعالي ، ولا هي ثبات في العناد ... كذلك لم تكن رقة معاملاته عن حساسية مفرطة وعمل الاحسان لم يكن عن ضعف. عدم تعلقه بالدنيويات لم يجعله شخصاً سلبياً غير مهتم بالحياة الاجتماعية. سلطانه وسيادته كانت متحرره من كل كبرياء أو غرور ، كذلك شخصيته الودودة كانت متحررة من الدالة. انكاره لذاته كان متحرراً من الاكتئاب ، وتعففه كان متحرراً من خشونة الطبع. جمع في ذاته البراءة الطفولية ، والقوة الرجولية. التكريس لله ، مع اهتمام لا يكل في شئون الإنسان. محبة حانية على الخطاة مع صرامة لا هوادة فيها ضد الخطية. لقد أوصي بحفظ الكرامة مع اتضاع حقيقي. شجاعة غير هيابة مع احتراس حكيم . حزم غير مستسلم مع رقة عذبة .

ما أنسب أن يُشبه يسوع بأسدٍ في القوة ، وبالحملِ في الوادعة. لقد امتلك حكمة الحية وبساطة الحمام. لقد أشهر سيفاً ضد كل أشكال الشر ، وبشر بسلام الروح الذي لا يستطيع العالم أن يعطيه. لقد كان الأكثر تأثيراً ، ورغم هذا قليلاً ما تكلم. كان أعمق من أحدث انقلاباً في العالم ، ورغم هذا كان محافظاً وهادئاً وصبوراً أكثر من كل الثوريين. لقد أتي ليكمل كل حرف في الناموس ورغم هذا جعل كل شيء جديداً. نفس اليد التي طردت مدنسي الهيكل هي هي التي باركت الأطفال الصغار ، وشفت الأبرص ، وأنقذت التلميذ الغارق. نفس الأذن التي سمعت صوت تمجيد من السماء هي هي نفس الأذن التي مالت لتسمع صيحات المرأة الكنعانية التي كانت في مشكلة. نفس الفم الذي نطق بويلات مرعبة على المنافقين هو هو نفس الفم طوب المساكين بالروح ، ونطق بالغفران للزانية وصلي لأجل صالبيه .

عين المسيح التي عاينت أسرار الله وتغلغلت في قلوب الناس هي هي نفس العين سكبت دموع الاشفاق على أورشليم ناكرة الجميل ، ودموع الصداقة على قبر لعازر .

قد تبدو هذه الصفات متناقضة ولكن الأمر ليس كذلك لأنها تعكس النواحي المختلفة التي يُظهر الله بها قوته. فقد نري القوة الإلهية في العواصف ، وقد نراها أيضاً في بذوغ شمس الصباح على جبال الألب كما على سوسنة نابتة في الأودية ، نراها في المحيطات التي بلا حدود كما

في قطرات ندي الفجر. أنها صفات لا تنفصل عن بعضها البعض ، قد تنفصل عند البشر غير الكاملين ، ولكنها تتحد في المسيح النموذج الكوني للجميع .

++++++++++

الفصل العاشر

المسيح كامل في تألمه

قد يتمسك الإنسان بأخلاقياته وهو في وضعه الطبيعي ، أما لو تعرض لآلام وتعذيبات وضغوط تهدده بالموت ، فإنه سرعان ما يطرح بقيمه ومبادئه وأخلاقه عرض الحائط ... أما المسيح وهو الذي يتميز برهافة الحس ظلت كل فضائله عاملة بنشاط فيه حتى وهو في الآمه وصلبه ، وهذا بحسب رأيي أعلى مستوي للإستشهاد الحقيقي .

٢٧- ذروة المعاناة :

أن أي فضيلة لا يُحكم بكمالها بدون اختبار وألم. والموت النبيل هو الذي يتوج حياة نبيلة. قال أحد الحكماء : " أن الذم هو عنصر أساسي لكل مجد حقيقي. والوشاية وسوء المعاملة هي عناصر الانتصار " . الفلاسفة والحكماء القدماء ، كانوا يُعجبون بالرجل الصالح الذى يناضل مع السلبيات المقاومة لصلاحه كمنظر يليق بالآلهة .

والقول العجيب الذى قاله افلاطون قبل المسيح بثلثمائة سنة وهو يصف الانسان البار : " أنه هو الذى لا يفعل ظلماً وبالرغم من هذا يُظلم كفاعل شر وهو ثابت فى بره وصلاحه ، متحفظ من التدنى إلى مستوى الانتقام والوشاية حتى الموت " ثم استطرد افلاطون قائلاً : " أنه لو وجد مثل هذا البار على الأرض ، فإنه سيُجلد ويعذب وينسحق ، ويُستخف به ، وبعد أن يعانى من كل الايذاءات ، يُسمر على صليب !!! ".

ولقد انذهل المسيحيون ، القدماء والحديثون ، إذ رأوا فى هذه الفقرة الملفتة للنظر ، تطابقاً عجيباً لوصف المسيح خادم يهوه الموصوف فى سفر اشعياء ٥٣ ، وادراك مسبق ونبوءة عفوية عن يسوع المتألم .

كل عظماء هذا العالم الذين سموا وارتفعوا حتى تفوقوا على أنفسهم ، وواجهوا جيوشاً متفوقة بشجاعة ، غالباً ما يفقدون اتزانهم فى حياتهم العادية ، وتراهم غير صبورين أمام عقبات تافهة أما يسوع فحتى وهو فى ذروة المعاناة نراه على نفس مستوياته الأخلاقية الفائقة ولم يحد قيد أنملة عن قيمه ومبادئه .

٣٨- مجد التسامح والتسليم :

لقد قدم المسيح للعالم أعلى مستوى من الأخلاق والقيم بتعاليمه وقدوته. مستوى لا نجد له نظيراً لا قبله ولا بعده ، حقاً قد نجد بعضاً من الذين اقتدوا به فى جانب من الجوانب [كمثل

الشهيد اسطفانوس الذى طلب الغفران لراجميه] فما أحدثه يسوع المسيح فى العالم كان انقلاباً جذرياً فى الأخلاقيات والقيم . واقنع العالم بأن التسامح والمحبة والقداسة والاتضاع والصبر الجميل على الألم والتسليم المبتهج لإرادة الله المقدسة ... هم تاج الامتياز للعظمة الأخلاقية. لقد علم يسوع الأجيال : " وإن أخطأ إليك أخوك سبع مرات فى اليوم ورجع إليك سبع مرات فى اليوم قائلاً أنا تائب فاغفر له " وأيضاً " وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم " هذه قاعدة سامية جداً حقاً ، ولكنها أكثر سمواً عندما طبقها المسيح فى حياته فاكتسبت قوة غير محدودة .

٢٩- رسالة مليئة بالصعاب :

فضائل المسيح كانت من النوع الراسخ الأصيل. فلم تكن مجرد ادعاء مظهرياً ، أو وسيلة مرحلية لبلوغ غاية دنيوية كما يفعل البشر الذين تتغير مبادئهم مع كل خطوة حين يصطدمون ببعض التجارب والصعاب أو الضيقات ، على حسب ما يخدم أغراضهم ، لم يكن الأمر هكذا بالنسبة للمسيح بل كانت أخلاقه وتعاليمه نابعة من الداخل وليست مجرد ديكور ... لقد واجه يسوع التجارب والصعاب والضيقات ، وعاش حياة شاقة فى أثناء اخلائه لذاته. كان " رجل أوجاع ومختبر الحزن " ولقد احتمل فى ذاته " مقاومة من الأشرار " كان فقيراً وآلمه الجوع والتعب. جرب من الشيطان وكانت مسيرته مفعمة بالمشاكل التى تبدو وكأنها بلا حل. كلماته ومعجزاته – على عكس المتوقع – جلبت عليه كراهية مرة من العالم ، تلك الكراهية التى بلغت ذروتها فى النهاية إلى مؤامرة قتل دموية. الفريسيون والصدوقيون طرحوا خلافاتهم جانباً واتحدوا لمقاومته. لقد رفضوا شهادته واستخفوا بها ، لقد نصبوا له فخاخاً عن طريق أسئلة خبيثة ، ادعوا عليه أنه أكول وشريب خمر لمجرد أنه يأكل ويشرب مثل باقى الناس ، وقالوا بأنه صديق للعشارين والخطاة لمجرد حبه الشديد وعطفه على خطاة ، اتهموه بأنه كاسر لوصية حفظ السبت لأنه كان يعمل الخير يوم السبت ، وقالوا عنه أنه مجنون مجدف لأنه أكد وحدانيته مع الآب ، كما نسبوا معجزاته إلى بعلزبول رئيس الشياطين ، وعامة الناس ، رغم انبهارهم بحكمته واعماله الفائقة أشاروا بالغمز واللمز لأصله وموطنه ، وأهل مدينته انكروا عليه شرف النبوة .

أقاربه كما نقرأ لم يؤمنوا به ، وكانوا فى انتظار أن يستغلوا زعامته للشعب لجنى بعض المزايا لذواتهم ، ولكن فى غيرتهم غير الصبورة لمملكته الوقتية انتقدوا أسلوبه غير المتباه وأرادوا تحجيم رسالته !

وحتى تلاميذه ورسله ، رغم توقيرهم العميق لشخصه ، وايمانهم بأصله الإلهى ورسالته كمسيح الله إلا أنه عانى من جهلهم ، وسوء فهمهم المعتاد لمنهجه الروحى ، ويهوديتهم الجسدانية ... فقد كانت أفكاره تعلو أفكارهم بمراحل .

٣٠- آلام حمل خطايا العالم :

ولكن كيف لنا أن نصف آلامه بدقة ، تلك التى لا يحتملها أحد ولا لدقيقة واحدة ؟ وهى التى عبرت عنها كلمات النبى بصورة باهتة : " قد دست المعصرة وحدى ، ومن الشعوب لم يكن أحد معى " لو أن أحداً من عظماء الأرض ذا مركز ونفوذ ، أرقى من المستوى العادى سواءً من جهة أفكاره السامية أم أعماله الفذة ، ثم يزج بهذا الانسان الفاضل إلى تعذيب ظالم ! فكم بالأكثر يسوع فى تألمه وهو أنقى وأقدس الكائنات كلها !

ولا ننسى أنه كلما اقترب انسان إلى ذروة الكمال الأخلاقى ، كلما كان عمق حساسيته ورهافة مشاعره تجاه الخطية والشر والبؤس فى هذا العالم الشرير .

وعليه ، ليس معاناة تفوق معاناة انسان بار يجار عليه ظلماً وبكثافة ، أكثر من يسوع الناصرى .

لم تستغرق عمليات تعذيب يسوع إلا بضع ساعات ولكنها تجسم كل المآسى الكونية حين يفتك بشر أشرار بأخيهم الانسان متفننين ومخترعين كل صنوف التعذيب فيه ... لقد تحمل يسوع كل شر جهنمى خبيث من البشر ... اهانة وايذاء ونكران للجميل ، وشتم ، وآلام جسدية وذهنية وجراح وأحزان باهظة ... كل هذا يتجمع فى موت مشين محفوف بالعار ، لم تعرف البشرية مثيلاً له بين اليهود ولا بين الأمم ، إذ مات موت العبيد فاعلى الشر !

لقد إتحد الشعب مع الحكام ضد من أتى ليخلصهم ، يهوذا ، بايعاز من الشيطان خانه ، وتلاميذه تركوه وبطرس أنكره ، والحكام استذنبوه ، والجنود غلاظ القلوب سخروا منه ، والجماهير الغاضبة صرخت ثائرة عليه قائلة " أصلبه أصلبه " لقد قبض عليه فى الليل ، وأسرعوا به من محاكمة إلى محاكمة ، وألبسوه اكليل شوك ، شتم ، بصق عليه ، لطم ، جلد ، وأُجبر على حمل صليبه ، وسُمر على خشبة اللعنة بين اثنين من اللصوص القتلة ...

٣١- المجد الالهي لآلام يسوع :

كيف تحمل يسوع كل هذه الآلام الضخمة سواء أثناء حياته أم عند موته على الصليب ! ولنتذكر أولاً أنه على عكس الابيقوريين الذين يعتبرون أن التبلد الحسى فضيلة ، ومن الواضح أنها فضيلة زائفة غير طبيعية بل ومنفرة ومثيرة للاشمئزاز ، فلقد كان للمسيح رهافة حس ، وتعاطف عميق مع كل الأحزان البشرية ، تلك التى جعلته يذرف الدموع عند قبر صديق ، وجعلت عرقه يتصبب كقطرات دم من شدة الأسى وهو يتضرع لأجل البشرية فى بستان جثيمان ، ولم ينسى أن يمنح مأوى لأمه فى بيت تلميذه يوحنا وهو على الصليب فى آخر ساعة لموته ... ولكن هذه الاحساسات السرقة ، والرق الشديدة ، كانت باستمرار مقرونة بمهابة السلطان ، ورزانة التحكم فى النفس مع هدوء ذهنى لا يضطرب ... كان وهو فى

عمق تألمه يحمل فى داخله سيادة وعظمة امرة ، منعت مشاعر الاشفاق على الذات من أن تبرز وتُفسد إكمال عمل الفداء إلى النهاية ...

فحينما رأى بنات أورشليم يبكين ويولولن عليه وهو حامل صليبه ، قال لهن بقوة : " ... لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن " .

لم يُفاجأ المسيح بآلام الصلب ، حيث أنه سبق وأخبر بها مراراً وتكراراً ، ولكنه لم يتململ منها قط ، ولم يتذمر ، أو نطق بما يدل على استيائه أو ابتئاسه. لم يكن أبداً محبطاً ولا متكدراً ولا متبرماً من الآلام التى وقعت عليه ، بل اجتازها وهو ممتلئ بالثقة فى عناية أبيه السماوى وبأن كل شئ سيكون على ما يرام فى النهاية .

هدوءه وطمأنينه وهو فى القارب فى بحيرة جنيسارت وسط العاصفة الهوجاء ، عندما كان تلاميذه يرتجفون وهم على حافة الهلاك واليأس ، يصور لنا طابع ذهنه السماوى. وهكذا فى كل المواقف كانت شخصيته تتميز بالسيادة والهدوء رغم الاضطراب والهياج المحيطان به في الخارج .

لم يخف قط من أي تهديد من العالم ، ولم يطلب وساطة وسيط يدافع عنه ، بل لم يطلب أن يدافع هو عن نفسه سائلاً ظالميه أن يصغوا إلى اعتراضاته !!! .

لقد تحرك برزانة عجيبة كمثل الشمس فوق سحب الآلام والتجارب البشرية وهي تعبر أمامها. كان على الدوام محاطاً بهالة من السلام حتى ساعة رحيله ... ففي تلك الليلة الخالدة عندما قال لتلاميذه المضطربين " سلامي أترك لكم سلامي أنا أعطيكم ، ليس كما يعطي العالم أعطيكم ، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب ". الذي يقول هذا لم يكن قط تعساً ، بل ممتلئاً بفرح داخلي ... ذلك الفرح الذي طلبه لتلاميذه في صلاته الوداعية إذ قال : " ليكمل فرحي فيهم " .

لقد سامح بطرس الرسول ، وحتى أثناء تعليقه على الصليب لم يكن ينطق إلا بلغة الاشفاق على الأشرار. والذين كانوا يدقون المسامير في يديه ورجليه على الصليب صلي لأجلهم قائلاً: " يا أبتاه أغفر لهم لأنهم يفعلون ما لا يعلمون " .

لم يكن يسوع يبحث عن الاستشهاد في موقف استعراضي أو بحماس سوداوي ، أو اتضاع مستكين ، بل بهدوء وصبر انتظر الساعة المحددة بإرادة أبيه السماوي ، فتقدم إلى الموت بلا تردد ...

وعندما أتت الساعة ، يا لرابطة الجأش ، ويا للهدوء مع القوة ، يا للسيادة مع الوداعة واللطف من كل هذا واضح عبر كل مشاهد آلامه ، وتجاربها الحالكة. لقد وقف كسجين أمام بيلاطس الذي يُمثل قوة الامبراطورية أمامه !!

لفقوا له جرائم وهو يحاكم أمام رئيس الكهنة فرد بكلام سيادة وسلطان مما دفع برئيس الكهنة، أن يشق ثيابه في تهور وفزع !! وفي نزع الموت وهو على الصليب ، منح مكاناً في الفردوس للص تائب .

ونلاحظ أنه في كل قول وكل فعل قام به المسيح في فترة الآلام والصلبوت كان له معاني بلاد حدود تحاول الأجيال تفهمها جيلاً بعد جيل ولم يصلوا إلى نهاية أعماقها ... فمن أحزان جثيمان وحتى القبر مروراً بكل المشاهد المرعبة للصلب ، نري المسيح وحيداً في بره ونقائه وسط جماهير الأشرار المذنبين الخطاة ورغم هذا لم تفارقه مشاعر الاشفاق على ذنوب الجنس البشري !!.

صلي أن تعبر عنه هذه الكأس ، ولكنه أضاف بسرعة " ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك " وظل خاضعاً لإرادة الآب إلى أن هتف بإنتصار " قد أكمل " وهو على الصليب ...

صمته السيادي أمام استهزاء أعدائه ، وحنق الجماهير تحقيقاً للنبوة " كشاه تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها " هذا الصمت كان أبلغ من أي كلام ... من يستطيع أن يأتي بمثل هذا النموذج من السير التاريخية لحكماء الأرض ، سواء القدامي أم المحدثين ؟

إن حياة وموت يسوع ليست لإنسان حكيم بل هي خاصة بالله ... كلما اقتربنا معاً شعرنا أن آلام المسيح تختلف عن كل الآلام الأخري للبشرية المعذبة ... لقد مات البار من أجل أثمه ، مات القدوس من أجل خطاة ، وقد غسل بدمه ذنوب العالم الساقط ...

ونحن ننحني ونسجد للفدية الكفارية وللحب غير المحدود .

لقد كان مجرد التفكير في فادي إلهي ينقذ بني آدم عبودية الخطية والموت ، يعتبر فكراً سامياً جداً كحلم جميل ... فكم بالحري حينما لا يكون هذا الأمر مجرد فكر أو حلم بل حقيقة واقعة!

أنها حقاً سر لا يمكننا استيعاب كل أبعاده ولكنه سر واضح كل الوضوح إنه عمل إلهي سماوي ونبعه وسماته ، سر مبارك في تأثيره ، حتى أن كل إنسان لابد أن يسجد سجود العبادة والتسبيح بعقله وقلبه على كل ما فعله المسيح من أجله ، مغموراً بمشاعر الفرح والعرفان بالجميل !!

إن الآم وصلب المسيح – كمثل كل سمات حياة المسيح الأخري – تقف بلا نظير في عظمتها ومجدها ، وستستمر إلى الأبد كما كانت طوال الألفي عام للناس الفضلاء النبلاء موضوع تأمل مقدس ، وقدوة لكل فضيلة معذبة ، وسلاح ضد الخطية والشيطان ، والمحرض على القداسة والامتنان للخالق وينبوع للسلام والتعزية .

آمين